الفصل السادس

صلات العرب بالساميين

لاحظ المعنيون بلغات (الشرق الأدنى) وجود أوجه شبه ظاهرة بين البابلية والكنعانية والعبرانية والفينيقية والأرمية والعربية واللهجات العربية الجنوبية والحبشية والنبطية وأمثالها ، فهي تشترك أو تتقارب في أمور أصلية وأساسية من جوهر اللغة ، وذلك في مثل جذور الأفعال ، وأصول التصريف ، تصريف الأفعال ، وفي زمني الفعل الرئيسيين ، وهما : التام والناقص ، أو الماضي والمستقبل ، وفي أصول المفردات والضمائر والأسماء الدالة على القرابة الدموية والأعداد ، وبعض أسماء أعضاء الجسم الرئيسية[1] ، وفي تغير الحركات في وسط الكلمات الذي يحدث تغيراً في المعنى ، وفي التعابير التي تدل على منظمات الدولة والمجتمع والدين[2] ، وفي أمور مشابهة أخرى ، فقالوا بوجوب وجود وحدة مشتركة كانت تجمع شمل هذه الشعوب ، وأطلقوا على ذلك الأصل ، أو الوحدة (الرس السامي) أو (الجنس السامي) ، أو (الأصل السامي) ، أو (الساميـة ، (Semites) (shemites) [3] (Semitic Race) وعلى اللغات التي تكلمت وتتكلم بها هذه الشعوب

---

١ Hastings, Encylopaedia of Religion and Ethics, Vol., II, PP, 378 (1934), Zimmern, Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen, Berlin 1898, P., 82, ff.

٢ Ency. Brita., 20, PP., 315.

٣ Leland. W. Parr, An Introduction to the Anthropology of the Near East, Amesterdam, 1934, P., 43.

(اللغات السامية) ، (Semitic Languages)[1] .

وقد أخذ من أطلق هذه التسمية ، تسميته هذه من التوراة[2] . أخذها من اسم « سام بن نوح » ، جدّ هذه الشعوب الأكبر ، كما هو وارد فيها . وأول من أطلقها وأذاعها بين العلماء علماً على هذه الشعوب ، عالم نمساوي اسمه (أوغست لودويك شلوتسر) August Ludwig schloetzer أطلقها عام (١٧٨١م) فشاعت منذ ذلك الحين ، وأصبحت عند العلماء والباحثين في موضوع لغات الشرق الأدنى علماً للمجموعة المذكورة من الشعوب[3] وقد أخذ (آيشهورن) (Joh. Cotte. Eichhorn) هذه التسمية ، وسعى لتعميمها بين العلماء علماً على الشعوب المذكورة[4] .

وفي عام (١٨٦٩ م) قسم العلماء اللغات السامية الى مجموعتين : المجموعة السامية الشمالية ، والمجموعة السامية الجنوبية[5] وتتألف المجموعة الشمالية من العبرانية والفينيقية والأرمية والآشورية والبابلية والكنعانية . وأما المجموعة الجنوبية، فتتألف من العربية بلهجاتها والحبشية . وعم استعمال هذا الاصطلاح بينهم وأصبح موضوع (الساميات) من الدراسات الخاصة عند المستشرقين ، تقوم على مقارنات وفحوص (أنتولوجية) و (بيولوجية) وفحوص علمية أخرى، فضلاً عن الدراسات التأريخية واللغوية والدينية[6] .

وهذه القرابة الواردة في التوراة ، وذلك التقسيم المذكور فيها للبشر، لايستندان إلى أسس علمية أو عنصرية صحيحة ، بل بُنيت تلك القرابة ، ووضع ذلك التقسيم على اعتبارات سياسية وعاطفية وعلى الآراء التي كانت شائعة عند شعوب

---

١ Hommel, Grundriss, Bd., I, S., 17, Ency. Brita., Vol., 20, PP. 314. Eichhorns, Geschichte der Neuern Sprachenkunde, I, abt., Gottingen, 1807.

٢ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ، ١ ، ٢١ ، قاموس الكتاب المقدس (١ / ٥٣١) .

٣ Hommel, Grundriss, I, S, 76, Ency. Brita., 20, PP., 314, The Universal Jewish Encyclopedia, Vol., 4, P., 473, Hastings, P., 845, S. Moscati, The Semites in ancient History, Cardiff, 1959.

٤ Eishhorn, Geshichte der Neueren Sprachenkunde, I abt., Gottingen, 1807, Sprachen, der Semiten in Westasien, S., 403-672,

٥ Hommel, Grundriss, 1, S., 76, Eichhorn, S., 405, Eberhard Schrader, S., 76.

٦ S.H. Hooke, The Origins of early Semitic ritual, London, 1938, Hommel, Grundriss, I, PP., 84.

العالم في ذلك الزمان عن النسب والأنساب وتوزع البشر[1] . فحشرت التوراة في السامية شعوباً لا يمكن عدّها من الشعوب السامية، مثل (العيلاميين) (Elam) و (اللوديين) (Ludim) (Lud) ، وأقصت منها جماعة من الواجب عدّها من الساميين ، مثل (الفينيقيين) و (الكنعانيين)[2] .

ويرى (بروكلمن) أن العبرانيين كانوا قد تعمدوا إقصاء الكنعانيين من جدول أنساب سام ، لأسباب سياسية ودينية ، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية[3] .

وقد رجّح الإصحاح العاشر من التكوين نسب الفينيقيين والسبئيين إلى حام، جد الكوشيين ، ذوي البشرة السوداء ، مع أنهم لم يكونوا من الحاميين ، وقد يكون ذلك بسبب وجود جاليات فينيقية وسبئية في افريقية ، فعدّ كتبة التوراة هؤلاء من الحاميين[4] .

وقد عرف المسلمون اسم (سام بن نوح) ، وقد كان لا بد لهم من البحث عن أولاد (نوح) لما لذلك من علاقة بما جاء عن (نوح) وعن الطوفان في القرآن الكريم . وقد روي أن رسول الله قال : (سام أبو العرب ، ويافث أبو الروم ، وحام أبو الحبش)[5] ، وقد روى (الطبري) جملة أحاديث عنه في هذا المعنى . وقد لاحظت أنها كلها وردت من طريق (سعيد بن أبي عروبة) عن (قتادة) عن (الحسن) عن (سمرة بن جندب) ، وهي في الواقع حديث واحد ، ولا يختلف إلا اختلافاً يسيراً في ترتيب الأسماء أو في لفظ أو لفظين[6]. ومن هنا يجب أن يدرس هذا الحديث وكل الأحاديث المنسوبة الى الرسول في هذا الباب دراسة وافية ، لنرى مدى صحة نسبتها الى الرسول ، كما يجب دراسة ما نسب الى عبدالله بن عبّاس أو غيره في هذا الشأن ، فإن مثل هذه الدراسات تحيطنا علماً برأي المسلمين ايام الرسول وبعد انتقاله الى الرفيق الأعلى في نسبتهم الى سام بن نوح[7] .

---

١ George Aaron Barton, Semitic, and Hamitic Origins, London, 1934, P., 1,

٢ (التكوين ، الاصحاح العاشر) الاية ١ ، فما بعدها ،
Hastings, P., 945, Ency. of Relig. and Ethic., Vol., II, PP., 37 378, Barton, P. I.

٣ Brockelman, Sprachwissenschaft, S., 15.

٤ Reynold, A. Nicholson A. Literary History of the Arabs, P., XV.

٥ الطبرى (٢٠٩/١) « دار المعارف » .

٦ الطبرى (١ /٢٠٩) « دار المعارف » .

٧ الاكليل (٦٤/١) .

وقد قسم بعض علماء الساميّات المحدثين اللغات السامية الى أربع مجموعات هي : المجموعة السامية الشرقية ومنها البابلية والآشورية،والمجموعة الشمالية ومنها الأمورية والأرمية ، والمجموعة الغربية ومنها الكنعانية والعبرانية والموابية والفينيقية،والمجموعة الجنوبية ومنها المعينية والسبئية والاثيوبية والعربية والأمهرية[1] . ويلاحظ أن واضعي هذا التقسيم لم يراعوا في وضعه التطورات التأريخية التي مرت بها هـذه اللغات بل وضعوا تقسيمهم هذا على أسس المواقع الجغرافية لتلك الشعوب .

والسامية بعد،ليست رساً (Race) بالمعنى المفهوم من الرس عند علماء الأحياء، أي جنس له خصائص جسمية وملامح خاصة تميزه عن الأجناس البشرية الأخرى. فبين الساميين تمايز وتباين في الملامح وفي العلامات الفارقة يجعل اطلاق (الرس) عليهم بالمعنى العلمي الحديث المفهوم من (علم الأجناس) ، أو الفروع العلمية الأخرى نوعاً من الاسراف واللغو ، كما أننا نرى تبايناً في داخل الشعب الواحد من هذه الشعوب السامية في الملامح والمظاهر الجسمية ، وفي هـذا التمايز والتباين دلالة على وجود اختلاط وامتزاج في الدماء ، سأتحدث عنه في الفصل الخاص بالأنساب وبانقسام العرب الى قحطانيين وعدنانيين .

ولقد وجد بعض علـماء (الانثروبولوجي) مثلاً أن بين اليهود تباينـاً في الصفات وفي الخصائص التي وضعها هذا العلم للجنس ، مع ما عرف عن اليهود من التقيد بالزواج وبالابتعاد عن الزواج من غير اليهود[2] . وكذلك وجـد العلماء الذين درسوا العرب دراسة (انثروبولوجية) أن بـين العرب تبايناً في الملامح الجسمية . وقد اتضح وجود هذا التباين عند الجاهليين أيضاً ، كما دلت عـلى ذلك الفحوص التي أجريت على بقايا العظام التي عثر عليها في مقابر جاهلية[3] . كذلك وجد علماء (الأنثروبولوجي) من فحص العظام التي عثر عليها في الآثار الآشورية والبابلية أن أصحابها يختلفون أيضاً فيما بينهم في الملامح التي تعد أساساً في تكوين جنس من الأجناس .

---

١ Ency. Brita., 20, P., 316, Gesenius, Geschichte, der Hebraeischen Sprache und Schrift, Graf Arthur, Gobineau, Die Ungleichheit der Menschenrassen, Berlin, S., 180, (German translation).

٢ Buxton, The People of Asia, P., 96. ff.

٣ Buxton, P., 99. ff.

ولهذا ، فإني حين أتحدث عن السامية لا أتحدث عنها على أنها جنس ، أي رس صاف بالمعنى (الأنثروبولوجي) ، بل أتحدث عنها على أنها مجموعة ثقافية وعلى أنها مصطلح أطلقه العلماء على هذه المجموعة لتمييزها عن بقيـــة الأجناس البشرية ، فأنا أجاريهم لذلك في هذه التسمية ، ليس غير .

إن بحوث العلماء في موضوع السلالات البشرية وفي الأجناس البشرية وفي توزع الشعوب وخصائص ومميزات الأجناس لا تزال بحوثاً قلقة غير مستقرة . ولهـذا تجد نتائج بحوثهم في تعريف الجنس وفي صفات الأجناس وفي المسائل الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع مختلفـــة ، ولا سيما أن هنالك عدة أمور تؤثر في حيـــاة الإنسان وفي خصائصه الروحية والجسمية . والنواحـــي اللغوية وبعض الخصائص الروحية الأخرى ، وان كانت مهمة وضرورية لدراسة الناحية العقلية للانسان ، إلا انها ليست الأسس الوحيدة لتكوين رأي في الأجناس البشرية[1] .

فالسامية اذن ، بهذا المعنى هي مجرد اصطلاح ، قصد به التعبـــير عن هذه الروابط أو الظواهر التي نراها بين الشعوب المذكورة، أما البحث على أن الساميين جنس من الأجناس بالتعبير الذي يعنيه أهل العلوم من لفظة جنس، فإن ذلك في نظري موضوع لا يسع علماء الساميات أو علماء التاريخ أن يبتوا فيـه ويصدروا حكماً في شأنه ، لأنه بحث يجب أن يستند الى تجارب وبحوث مختبرية ، والى دراسات للشعوب الباقية من السامية ، بأن ندرس جماجم قدماء الساميين وعظامهم في جزيرة العرب وفي المواطن الأخرى التي انتشر فيها الساميون ، وعند اكتمال مثل هذه الدراسات ووصولها الى درجات كافية ناضجة يمكن العلـــماء حينئذ أن يتحدثوا عن السامية من حيث انها جنس بالمعنى العلمي ، أو جنس بالمعنى الاصطلاحي .

هذا وقد عني بعض الباحثين المحدثين بدراسة ما عثر عليـه في بعض القبور العادية من عظام ، لتعيين أوصافها وخصائصها والجنس الذي تعود اليـــه ، كما قام بعضهم بدراسة أجسام الأحياء واجراء فحوص عليها وتسجيل قياسات الرؤوس

---

١ Ralph Linton, The Study of Man, L. H. Dudley Buxton, The Peoples of Asia, London, 1925, Sonia Cole, Races of Man, British Museum, (Natural History), London, 1965.

وملامح الأجسام وما الى ذلك مما يتعلق بموضوع (الأجناس البشرية) ، واذا ما استمر العلماء على هذه الدراسة وتوسعوا فيها ، فسيكون لهـا شأن خطير في وضع نظريات علمية عن تأريخ أجناس الشرق الأدنى وفي جملتهم الساميين .

وممن بحث في (أنثروبولوجية) الشرق الأدنى (كبرس Ariens Kappers) ، وقد وضع مؤلفاً قيّماً في دراسة شعوب الشرق الأدنى[1] . و (الدكتور سلكمن) (Dr. Seligman)[2]، و (شنكلن W. Shanklin) الذي عني بدراسة (أنثروبولوجية) سكـان شرقي الأردن وتقسيماتهم وحالات أعصابهم[3] ، و (A. Mochi)[4] ، و (برترام توماس) الذي قام بدراسات علمية عديدة من هذه الناحية لنماذج من أفراد القبائل العربية الجنوبية[5] ، والبعثة الأمريكية التي أرسلها متحف (فيلد) بشيكاغو لدراسة (أنثروبولوجية) القبائل العراقية النازلة على مقربة من (كيش) ، عدا دراسات أخرى عديدة قام بها علماء آخرون[6] .

وقد أجريت أكثر هذه البحوث في مناطق عرفت باتصالها منـذ القديم بالعالم الخارجي ، وفي أرضين استضافت الغرباء ، فهي لذلك لا يمكن أن تعطينا فكرة علمية عن (أنثروبولوجية) داخل جزيرة العرب ، فلا بد من القيام بدراسات دقيقة في قلب الجزيرة لتكوين رأي علمي عن عرب هذه الأماكن .

وقد لاحظ الفاحصون للعظام التي عثر عليها في الأقسام الجنوبية الشرقية من جزيرة العرب وجود تشابه كبير بين جماجم أهل عمان وجماجم سكان السواحل الهندية المقابلة لهذه البقاع، كما لاحظوا تشابهاً كبيراً في الملامح الجسمية بين العرب الجنوبيين أهل عدن وبقية العربية الجنوبية الغربية وتهامة وسكان إفريقية الشرقية .

---

١ C.U. Ariens Kappers, An Introduction to the Anthropology of the Near East in ancient and recent Times, Amesterdam, 1934, P., 73.

٢ Dr. Seligman, The Physical Characters of the Arabs, in Journal of the Royal Anthrop. Inst., Vol., 47, 1917, P., 217, The Races of Africa, 1930.

٣ W. Shanklin, The Anthropology of the Transjordan Arabs, Psychiatrische en Neurologische bladen, 1934, Anniversary Book for the central Institute of Brainreserch Amesterdam.

٤ A. Mochi, Sulla Anthropologia Giuffrida Ruggeri, in Crani Egiziani antichi, ed., Arabo — Egiziani, Atti della Soc. Romana d'Anthrop., T., 15, 1915.

٥ راجع الفصل الذي كتبه «Dr. Wilton Marion Krogman» في كتاب «Arabia Felix» (صفحة ٣٠١)

٦ Henry Field, The Anthropology of Iraq, Field Museum of Natural History, Chicago. 1940.

وقد اتخذ القائلون إن أصل العرب الجنوبيين من إفريقية هذا التشابه حجة ، تذرعوا بها في اثبات نظرياتهم هذه[1] .

غير أن هذه الفحوص أشارت من جهة أخرى الى حقيقة تخالف النظرية الإفريقية ، إذ بينت أن أشكال جماجم العرب الجنوبيين ورؤوسهم هي من النوع الذي يقال له : (Brachycephaly)[2] . أما أشكال جماجم سكان إفريقية الشرقية ورؤوسهم ، فمن النوع الذي يعرف باسم (Dolichocephaly) في الغالب[3] . وهذا التباين لا يشير الى وحدة الأصل . وقد تبين من هذه الفحوص أن أشكال جماجم العرب الشماليين ورؤوسهم ، هي من نوع (Dolichocephaly) كذلك، أي أنها نوع مشابه لأشكال جماجم الإفريقيين الشرقيين ورؤوسهم[4] .

وقد حملت هذه النتائج بعض الباحثين على التفكير في أن العرب الجنوبيين كانوا في الأصل في المواطن التي تكثر فيها الرؤوس المستديرة ، وأن هذه المواطن هي من آسية الصغرى الى الأفغان ، فزعموا أنهم كانوا هناك ثم هاجروا منها الى مواطنهم الجديدة في العربية الجنوبية[5] ، كما زعموا أن سكان (عمان) قد تأثروا تأثراً كبيراً بالدماء (الدراويدينية) (Dravidian) الهندية ، لهذا نجد أنهم يختلفون بعض الاختلاف عن بقية العرب الجنوبيين[6] .

وإذا قامت بعثات علمية بالبحوث (الأنثروبولوجية) في مواضع أخرى من جزيرة العرب ولا سيما في باطن الجزيرة،واذا ما استمر العلماء والسياح في البحث عن العظام والأحداث ، وفي دراستها دراسة مختبرية ، واستمروا في إجراء فحوصهم على الأحياء ، وقورنت نتائج فحوصها بنتائج فحوص العلماء في بقية أنحاء الشرق الأدنى ، فإن البحث في الساميات وفي علاقات الشعوب القديمة بعضها

---

١ Arabia Felix, P., 302.

٢ اصطلاح يطلق في علم « النتروبولوجي » على الجماجم التي يبلغ عرضها حوالي « ٨٠٪ » او اكثر من مقدار طول الجمجمة من الامام الى الخلف . ويقال لهذه الرؤوس قصيرة . راجع : Enc. Britanica., Vol., 3, P., 1003, 18, P., 865.

٣ ويعنى اصحاب الرؤوس الطويلة ، وهي الجماجم التي تكون ابعادها من جانب الى جانب تساوى « ٧٥٪ » او اقل من طول المسافة بين جبهة الجمجمة والمؤخرة . راجع : Enc. Britanica, Vol., 7, P., 506.

٤ Seligman, The Races of Africa, 1930, Arabia Felix, P., 304, P., 308.

٥ Arabia Felix, P., 304, 322.

٦ Dr. Wilton Marion Krogman, in Arabia Felix, P., 316.

ببعض ، سيتقدم كثيراً،وسيأتي ولا شك بنتائج علمية مقبولة في موضوع السامية والجنس السامي .

وطن الساميين :

وتساءل العلماء الباحثون في الأجناس البشرية : من أين جاء الساميون الأول، آباء الشعوب السامية ؟ وأين كان موطنهم الأول وبيتهم القديم ، الذي ضاق بهم في الدهر الأول ، فغادروه الى بيوت أخرى ؟ أما أجوبتهم ، فجاءت متباينة غير متفقة لعدم اهتدائهم حتى الآن الى دليل مادي يشير الى ذلك الوطن ، أو يؤيد نظرية وجود مثل هذا الوطن ، فقامت آراؤهم على نظريات وفرضيات ، وبحوث لغوية وعلى آراء مستمدة من الروايات الواردة في التوراة عن أصل البشر، وعن أبناء نوح ، والأماكن التي حلّ بها هؤلاء الأبناء وأحفادهم ثم أحفاد أحفادهم ، وهكذا على نحو ما تصورته مخيلة العبرانيين . فرأى نفر منهم ان أرض بابل ، كانت المهد الأول للساميين ، ورأى آخرون أن جزيرة العرب هي المهد الأول لأبناء سام ، وخصص فريق آخر موطناً معيناً من جزيرة العرب ، ليكون وطن سام وأبنائه الأول ، وذهب قسم الى إفريقية فاختارها لتكون ذلك الوطن ، لما لاحظه من وجود صلة بين اللغات السامية والحامية ، ورأى قوم في أرض (الأموريين) الوطن الصالح لأن يكون أرض أبي الساميين ، على حين ذهب قوم آخرون الى تفضيل أرض (أرمينية) على تلك الأوطان المذكورة . وهكذا انقسموا وتشعبوا في موضوع اختيار الوطن السامي ، ولكل حججه وبراهين .

وحتى القائلون بنظرية من هذه النظريات وبرأي من هذه الآراء ، هم قلقون غير مستقرين في نظرياتهم هذه ، فتراهم يُغيّرون فيها ويبدلون . يفترضون وطناً أصلياً لجد الساميين ، ثم يفترضون وطناً ثانياً يزعمون ان قدماء الساميين كانوا قد تحولوا من الوطن الأول اليه ، فصار الموطن الأقدم لهم . فقد ذهب (فون كريمر) مثلاً ، وهو عالم ألماني الى أن اقليم (بابل) هو موطن الساميين الأول ، وذلك لوجود ألفاظ عديدة لمسميات زراعية وحيوية (حياتية) أخرى تشترك فيها أكثر اللغات السامية المعروفة ، وهي مسميات لأمور هي من صميم

حياة هذا الاقليم ، الا أنه عاد فذكر أنه وجد أن لفظة (الجمل) لهذا الحيوان المعروف هي لفظة واردة في جميع اللغات السامية وفي ورود هـذه التسمية في جميع هذه اللغات دلالة على أنها من بقايا اللغة (السامية) الأولى . ولكن الجمل حيوان أصله وموطنه الأول الهضبة المركزيـة التي في آسية على مقربة من نهـر سيحون ونهر جيحون ، ولما كان قد لازم الساميـين من فجر تأريخهم واقترن اسمه باسمهم ، وجب أن يكون موطن الساميين الأقدم اذن هو تلك الهضبة ، إلا أن أجداد الساميين غادروها في الدهر الأول ، وارتحلوا عنها فانحازوا الى الغرب مجتازين ايران والأرضين المأهولة بالشعوب (الهنـد أوروبية) حتى وصلوا الى اقليم (بابل) ، فنزلوا فيه ، فصار هذا الإقليم الوطن الأقدم أو الأول للساميين .

وطريقة (فون كريمر) في هذه النظرية ، دراسة أسماء النبات والحيوان في اللغات السامية وتصنيفها وتبويبها للتمكن بذلك من معرفة المسميات المشتركة والمسميات التي ترد بكثرة في أغلب تلك اللغات . والتوصل بهذه الطريقة الى الوقوف على أقدم الحيوان والنبات عند تلك الشعوب ، فإذا اهتدينا اليها صار من السهل على رأيه التوصل الى معرفة الوطن الأصل الذي جمع في يوم ما شمل أجداد الساميين[1] .

أما (كويدي) ، وهو من القائلين أيضاً ان اقليم بابـل هو الموطن الأول للساميين ، فقد سار على نفس أسلوب (فون كريمر) نفسه وطريقته ، ولكن بصورة مستقلة عنه . درس الكلمات المألوفة في جميع اللغات السامية عن العمران والحيوان والنبات ونواحي الحياة الأخرى ، وقارن بينهـا وتتبع أصولها ثم قال قوله المذكور ، إلا انه اختلف عن (فون كريمر) في الوطن الأول ، حيث رأى أن مواطن الساميين الأول كانت الأرضين في جنوب بحر قزوين وفي جنوب شرقيه إلا انهم غادروها بعد ذلك وارتحلوا عنها الى اقليم بابل[2] .

وأما (هومل) ، وهو من العلماء الألمان الحاذقين في الدراسات اللغوية ، فقد

---

١ Von Kremer, Semitische Culturen Entlehnungen aus Pflantzen-und Thierreiche, in das Ausland, Bd., IV, note, 1, und 2.

٢ Guidi, Della sede primitiva dei Popoli Semitici, Roma, 1879, Wright, Comparative Grammer of the Semitic Languages, P., 5 Barton, P., 3, Hommel, Grundriss, 1. S., 80, A. Grohmann, Kulturgeschichte, S., 14.

ذهب أولاً الى أن موطن الساميين هو شمال العراق ، ثم عاد فقرر أن اقليم بابل هو الوطن الأصل،وذهب أيضاً إلى أن قدماء المصريين هم فرع من فروع الشجرة التي أثمرت الثمرة السامية ، وهم الذين نقلوا على رأيه الحضارة الى مصر نقلوها من البابليين[1] .

وقد ناقش (نولدكه) آراء هؤلاء العلماء المذكورين القائمة على المقابلات والموازنات اللغوية ، وعارضها معارضة شديدة ، مبيناً أن من الخطأ الاعتماد في وضع نظريات مهمة كهذه على مجرد دراسة كلمات واجراء موازنات بين ألفاظ لم يثبت ثبوتاً قطعياً أن جميع الساميين أخذوها من العراق ، وأورد جملة أمثلة اختلف فيها الساميون ، مع أنها أجدر المعاني بأن يكون لها لفظ مشترك في جميع اللغات السامية[2] .

ومن أوجه النقد التي وجهت الى نظرية القائلين إن العراق ، أو اقليم بابل منه بصورة خاصة ، هو موطن الساميين ، هو أن القول بذلك يستدعي تصور انتقال الساميين من أرض زراعية خصبة ذات مياه الى بواد قفرة جرد ، وابدال حياة زراعية بحياة خشنة بدوية ، ومثل هذا التصور يخالف المنطق والمعقول والنظم الاجتماعية .

وأما القائلون إن الموطن الأصلي لجميع الساميين هو جزيرة العرب ، فكان من أولهم (شبرنكر) . فقد رأى أن أواسط جزيرة العرب ، ولا سيما نجد ، هو المكان الذي يجب أن يكون الوطن الأول للساميين،وذلك لأسباب وعوامل شرحها وذكرها . ومن هذا الوطن خرج الساميون في رأيه الى الهلال الخصيب فطبعوه بالطابع السامي ، ومن هذا الهلال انتشروا الى أماكن أخرى[3] .

وقد أيد هذه النظرية جماعة من المستشرقين الباحثين في هذا الموضوع من

---

١ Hommel, Die Namen der Saeugethiere bei den Suedsemitischen Volkern, Leipzig, 1879. S., 406, Die Semitischen Voelker und Sprachen, 1881, Bd., I, S., 20, 63, Barton, P., 3 Hommel, Grundriss, I, S., 10. f.

٢ Noeldeke, Semitischen Sprachen, Leipzig, 1887, S., 3, 2ed., 1899, Enc. Brit., 9th. ed., Article, Semitic Language.

٣ A. Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammad, Berlin, 1861, Bd., I, S., 241, Alte Geographie Arabiens, 1875, S., 293, Barton, P., 4.

أمثال (سايس)[1] و (أبرهرد شرادر)[2]، و (دي كويه)[3] و(هوبرت كرمه)[4] و (كارل بروكلمن)[5] و (كينغ)[6] و (جول ماير)[7] و (كوك)،وآخرين[8] .

وقد مال الى تأييدهـــا وترجيحها (دتف نلسن) ، وهو من الباحثين في التأريخ العربي قبل الإسلام[9] . وكذلك (هوكو ونكلر) . و (هومـل) الذي يرى أن موطن جميع الساميين الغربيين هو جزيرة العرب[10] .

وقد ذهب نفر من القائلين بهذه النظرية الى أن العروض ولا سيما البحـــرين والسواحل المقابلة لها ، هي الوطن السامي القديم . ويستشهد هذا النفر على صحة نظريته ببعض الروايات والدراسات التي قام بها العلماء فكشفت عن هجرة بعض الأقوام كالفينيقين وغيرهم من هذه الأماكن .

أما (فلبي) ، فذهب في دراساته المسهبـــة لأحوال جزيرة العرب الى أن الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين. وفي هذه الأرضين نبتت السامية ، ومنها هاجرت بعد اضطرارها الى ترك مواطنها القديمـــة لحلول الجفاف بها الذي ظهرت بوادره منـــذ عصر (البالئوليتيك) (Palaeolithic) هاجرت في رأيه ، في موجات متعاقبة سلكت الطرق البرية والبحرية حتى وصلت الى المناطق التي استقرت فيها . هاجرت وقد حملت معها كل ما تملكه من أشياء ثمينة ، حملت معها آلهتها ، وأولها الإلـه (القمر) ، وحملت معها ثقافتها وخطها

---

١ Sayce, Assyrian Grammer, 1872, P., 13, Barton, P., 4.

٢ Eberhard Schrader, in ZDMG., XXVII, (1873), S., 397. ff., "Die Abstammung der Chaldaer und die Ursitze der Semiten".

٣ De Goeje, Het Vaterland der Semitische Volken, Barton, P., 5, Wright, Comparative Grammer of the Semitic Languages, P., 8.

٤ Hubert Grimme, Mohammed, Weltgeschichte in Karakterbildern, 1904, S., 6. f., Barton, P., 5.

٥ Carl Brockelmann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, Berlin, Berlin, 1908, 1, 2.

٦ L.W. King, History of Sumer and Akkad, London, 1915, P., 119.

٧ John L. Meyers, in Cambridge ancient History, Cambridge 1923, 1, 38, Barton, P. 6.

٨ S.A. Cook, in Cambridge ancient History, I, P., 192. f.

٩ Ditef Nielsen, Handbuch der altarabischen Altertumskunde, I, Kopenhagen, Paris, Leipzig, 1927, 47, 55.

١٠ A. Grohmann, S., 14, Hommel, Ethnologie und Geographie des alten Orient, Muenchen, 1926, S., 10.

الذي اشتقت منه سائر الأقلام ، ومنه القلم الفينيقـي ، وطبعت تلك الأرضين الواسعة التي حلت فيها بهذا الطابع السامي الذي ما زال باقياً حتى اليوم . وقد أخذ (فلبي) رأيه هذا من دراسات العلماء لأحوال جزيرة العرب ومن الحوادث التأريخية التي تشير إلى هجرة القبائل من اليمن نحو الشمال[1] .

فاليمن في رأي (فلبي) وجماعة آخرين من المستشرقين ، هي (مهد العرب) ومهد الساميين ، منها انطلقت الموجات البشرية الى سائر الأنحاء . وهي في نظر بعض المستشرقين أيضاً (مصنع العرب) ، وذلك لأن بقعتها أمدّت الجزيرة بعدد كبير من القبائل ، قبل الإسلام بأمد طويل وفي الإسلام[2] . ومن اليمن كان (نمرود) وكذلك جميع الساميين[3] .

والذين يقولون إن نجداً هي موطن الساميين الأول ، يفترضون أن موجـات هجرة الساميين اتجهت نحو الشمال كما اتجهت نحـو الجنوب والشرق والغرب[4] ، فكأن نجداً معين ماء يفيض فيسيل ماؤه الى أطرافه .

غير أن هنالك جماعـة من الباحثين ترى أن نجداً لا يمكن أن تكون الموطن الأول للساميين ، وذلك لأن شروط الحياة اللازمة لم تكن تتوفر بها ، اللهم إلاّ في المواضع التي توجد بها آبار أو واحات ، وهي قليلة متناثرة ، وذلك حتى في العصور (الباليوثية) (Palaeolithic Ages) . أما المراعي التي كانت بهـا في تلك الأوقات فلم تكن دائمة الخضرة ، بل كانت مع المواسم ولهذا فان السكن فيهـا لا يمكن أن يكون سكناً دائمياً مستمراً ، ثم ان السكن في نجد يقتضي وجود الجمل فيها ولم يكن الجمل موجوداً عند الساميين في العهود القديمة بل كان الحمار هو واسطـة الركوب والنقل عندهم . ولما كان الحمار لا يتحمل العيش في البوادي الواسعة الفسيحـة ، لذلك لم يتمكن الساميون اذ ذاك من التوغـل في

---

١ Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1949, P., 9, ff.

٢ Montgomery, Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934, P., 126, Background. P. 9.

٣ Eberhard Schrader, Die Abstammung der Chaldaer und die Ursitze der Semiten, in ZDMG, S., 14.

٤ James Hastings, A Dictionary of the Bible dealing with its Language Literature and Contents including the Biblical Theology, Extra Volume, 1904, P., 74. f. W. Warrell, A Study of Races in ancient Near East, Cambridge, 1927, 7, 45, 94. B. Thomas, Anthropological observation in South Arabia, 93-94, A. Grohmann, Arabien, S., 14.

الصحراء والسكن بعيداً عن مواضع الماء ، فانحصر سكنهم في أسياف البوادي أي في مناطق قريبة من الحضر ، ولهذا السبب رفض العلماء رأي من يقول إن نجداً هي الموطن الأول للساميين[1] .

ويمكن تلخيص الحجج والبينات التي استند اليها هؤلاء العلماء لاثبات نظريتهم في الأمور الآتية :

١ — لا يعقل أن ينتقل سكان الجبال والمزارعون من حياة الحضارة والاستقرار الى البداوة ، بل يحدث العكس . ولما كانت الشعوب السامية قد قضت في أطوارها الأولى حياة بدوية ، فلا بد أن يكون وطنها الأول وطناً صحراوياً ، وجزيرة العرب تصلح أن تكون ذلك الوطن أكثر من أي مكان آخر .

٢ — ثبت أن معظم المدن والقرى التي تكونت في العراق أو الشام إنما كونتها عناصر بدوية استقرت في مواضعها ، واشتغلت باصلاح أراضيها وعمرانها ، واشتغلت بالتجارة ، فنشأت من ذلك تلك المدن والقرى . ولما كانت أكثر هذه العناصر البدوية قد جاءت من جزيرة العرب ، فتكون الجزيرة قياساً على ذلك الموطن الذي غذّى العراق وبادية الشام وبلاد الشام بالساميين ، وأرسل عليها موجات متوالية منها .

٣ — هناك أدلة دينية ولغوية ، وتأريخية وجغرافية ، تشير بوضوح الى أن جزيرة العرب هي مهد السامية ووطن الساميين[2] .

٤ — إننا نرى أن جزيرة العرب قد أمدّت العراق وبلاد الشام بالسكان ، وأن القبائل الضاربة في الهلال الخصيب قد جاءت من جزيرة العرب ، فليس بمستبعد إذن أن يكون الساميون قد هاجروا منها الى الهلال الخصيب .

وقد عارض هذه النظرية طائفة من علماء الساميات ، وحجتهم : أن كل ما قيل وذكر من حجج وبينات ، لا يدل يقيناً على أن جزيرة العرب كانت هي المهد الأصلي للأمم السامية ، ونظرت الى إفريقية على انها المكان المناسب لأن يكون الوطن الأول للساميين . ومن هذه الطائفة من علماء الساميات (بلكريف) ،

---

١ Ancient Iraq, P., 125.

٢ ومن القائلين أن جزيرة العرب هي مهد الساميين (روبرتسن سمث Robertson Smith) الهلال ، نيسان ١٩٠٦ ، ج ٧ سنة ١٤ ، ص ٣٩٦ ،
Kinship and Marriage in Early Arabia, P., 178, Barton, P., 5.

وقد كوّن رأيه من وجود تشابه في الملامح ، وفي الخصائص الجنسية ، وصلات لغوية بين الأحباش والبربر والعرب دفعته الى القول بأن الوطن الأول للساميين هو إفريقية[١] .

وذهب الى هذا الرأي (جيرلند Gerland) ، مستنداً الى الدراسات (الفيزيولوجية) مثل تكوين الجماجم ، والبحوث اللغوية . وقد زعم ان شمال إفريقية هو الموطن الأصلي للساميين ، وادعى ان الساميين والحاميين من سلالة واحدة ودوحة تفرعت منها جملة فروع ،منها هذا الفرع السامي الذي اختار الشرق الأدنى موطناً له[٢] .

وهناك نفر من العلماء أيدوا هذه النظرية ودافعوا عنها أو استحسنوها ، مثل (برتن Bertin)[٣] و (نولدكه)[٤] و (موريس جسترو)[٥] و (كين) و (ربلي) وغيرهم[٦] . ولكنهم اختلفوا أيضاً في تعيين المكان الذي نبت فيه الساميون أول مرة في القارة الإفريقية ، واختلفوا كذلك في الطريق الذي أوصل الساميين الى جزيرة العرب[٧] ، فاختار (برنتن) Brinton شمال غربي إفريقية، ولا سيما منطقة جبال (الأطلس) فجعلها الموطن الأصلي للساميين[٨] .

واختار نفر آخر إفريقية الشرقية موطناً أول للساميين ،للعلاقات (الأثنولوجية) الظاهرة التي تلاحظ على سكان هذه المنطقة والساميين[٩] . وزعم أن الساميين سلكوا في عبورهم الى آسية أحد طريقين : إما طريق سيناء حيث هبطوا في العربية

---

١ Enc. Brit., 9Th. Ed., "Arabia", Barton, P., 6, Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380.

٢ Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380, Barton, P., 6, Iconographic Enc., Art., "Ethnography".

٣ Bertin, Journal of the Anthropological Institute, XI, 431, (1882), Barton, P., 6.

٤ Noeldeke, Die Semit. Sprachen, S., 9, Ency. Brita., (1911), "Semtic Languages", Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380.

٥ Barton, P., 7, Brinton, The Cradle of the Semites, Philadelphia, 1890, Races and Peoples, New York, 1890, P., 132.

٦ Barton, P., 7, A Sketch of Semitic Origin Social and Religious, Ch. I, New 1901.

٧ Barton, P., 6, C.U. Ariens Kapper and Leland W. Paar, An Introduction to the Anthropology of the Near East, Amsterdam, 1934, P., 47.

٨ Barton, P., 7, Brinton, Cradle of the Semites, Philadelphia, 1890, Races and Peoples, New York, 1890, P., 132, Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380.

٩ حتي (ص ١٠) .

الحجريـــة وأناخوا فيها مدة ثم انتشروا منهـــا[1] ، وإما طريق المندب حيث دخلوا العربية السعيدة من مواضع مختلفة من الحبشة ومن أرض (فنط Punt)[2] . وهي الصومال الحديثة[3] . وقد اكسبتهم اقامتهم في بلاد العرب خصائص جديدة، ووسمتهم بسمات اقتضتها طبيعة الوطن الثاني ، ولكنها لم تتمكن من القضاء على الخصائص الأولى التي تشير الى الوطن الأول قضاءً تاماً ، ولا عـــلى الصلة بين اللغات الحامية والسامية التي تشير الى الأصل المشترك كذلك[4] .

وهذه النظرية ، بالرغم من دفاع بعض كبار علماء اللغات والأجناس عنهـــا لا تخلو من ضعف ، ومن مواطن ضعفها أنهـــا غضت الطرف عن الاعتبارات التأريخية ،واستسلمت لدراسات لم تنضج بعد ، فمن الممكن مثلاً ارجاع ما لاحظه علماء اللغات السامية واللغة المصرية القديمة الى عوامل الهجرات الساميـــة من جزيرة العرب وعن طريق سيناء الى إفريقية ، مثل هجرة (الهكسوس) وهم من أصل سامي جاؤوا مصر من بلاد العرب . وقد ثبت أيضاً من تحقيقات العلماء أن كثيراً من الأسماء المصرية القديمة التي كانت تطلق على الأقسام الشرقية من الديار المصرية هي أسماء سامية . وإذا سوّغ علماء النظرية الإفريقية لأنفسهم الاستدلال عـــلى إفريقية الساميين من وجود القرابة اللغوية بين اللغة المصرية واللغات السامية مثلاً ، فإن من الممكن ارجاع هذه القرابة الى أثر الهجرات السامية في اللغـة المصرية .

---

١ Barton, P., 6, Journal of the Anthrop. Inst, XI, 431.

٢ يجب تعريب Punt بـ « فنط » ، قياسا على طريقة تعريب الاسماء الاعجمية الى العربية . وقد عربها بعضهم بـ « فوط » وتقابل كلمة « فوط » كلمة Put او Phut الواردة في التوراة انها مسكن ابن حـام الثالث ، غير ان علماء التوراة لم يتفقوا حتى الان على موضع « فوط » ، فذهب بعضهم الى انها في نواحي طرابلس الغرب « ليبيا » ، ورأى اخرون انها بين مصر و « كوش » ، اي السودان او الحبشة ، وربما كانت نوبيا الجنوبية ، وهنـــاك اراء اخرى . فلا ارى من الصحيح تسمية Punt بفوط لمكان هـــذا الاختلاف . راجع عن « فوط » ، ارميا ، اصحاح ٤٦ ، اية ٦ ، وحزقيال ، اصحاح ٢٧ ، اية ١٠ و ٣٠ ، اية ٥ ، و ٣٨ ، اية ٥ ، ناحوم ، اصحاح ٣ اية ٩ ، قاموس الكتاب المقدس (٢/٨ ١) ، عربت في ترجمة « تاريخ العرب المطـول » للدكتور حتي بـ « فوط » ص ٤٢ Hastings, P., 777, Enc. Bibl., P., 3984.

٣ حتى (ص ١٣) ،

٤ Barton, P., 8.

وأما تقارب الحبشية من اللهجات العربية الجنوبية وكتابة الأحباش حتى اليوم بقلم شبيه بالمسند ، فلا يكون دليلاً قاطعاً على هجرة الساميين من إفريقية عن طريق الحبشة الى جزيرة العرب ، إذ يجوز العكس ، وقديماً هاجر الساميون من العربية الجنوبية إلى الحبشة . والساميون هم الذين كوّنوا دولة (أكسوم) التي كانت تتكلم باللغة (الجعزية) ، وهي لغة سامية ، كما أن قلمها الذي يشبه قلم المسند هو وليد القلم العربي الجنوبي . وكتابات (يها) (يحا) المكتوبة بالمسند ، في حد ذاتها دليل على أثر العرب الجنوبيين في الإفريقيين (الكوشيين) ، وهذه الكتابات حديثة عهد بالنسبة إلى كتابات السبئيين[1] ، كما يمكن اعتبار تشابه أسماء بعض الأماكن القديمة في الحبشة مع نظائر لها في اليمن ووجود معبد في الحبشة خص بالإلـه (المقة) إلـه سبأ العظيم[2] ، وأمور أخرى دينية ولغوية وأثرية ، واعتراف الأحباش بأنهم من نسل ملكة سبأ (بلقيس) (ماقدة)[3] ، من (سليمان الحكيم) ، وأن (حبشت) التي أخذ الأحباش منها اسمهم في اللغة العربية هي مقاطعة تقع في العربية الجنوبية في رأي أكثر العلماء[4] ، وأن (الأجاعز) أصحاب اللغة الجعزية هم أقدم من هاجر من اليمن إلى الحبشة ، ووجود صلات قديمة بين الساحلين الإفريقي والعربي ، إذا نظرنا إلى كل هذه الأمور نظرة علمية دقيقة ، نجد أنها تجعل أمام القائلين إن أصل الساميين من إفريقية صعوبات ليس من السهل التغلب عليها ، ولا سيما إذا أضفنا اليها الأثر الذي تركته اليهودية والنصرانية في الأحباش وفي الشعوب الكوشية الأخرى ، فقرب ثقافتها من الثقافة السامية وأثر في لغتها ، وهو أثر يجب أن يقام له وزن عند بحث هذا الموضوع .

ثم ان كثيراً من علماء (الأنثروبولوجي) يرون أن إفريقية تأثرت بالدماء الآسيوية . أما تأثيرها في دماء أهل الشرق الأدنى وفي دماء سكان جزيرة العرب ،

---

١ Mueller, Epigraphische Denkmaeler aus Abessinien, Glaser, Die Abessiner in Arabien und Africa, Muenchen, 1895.

٢ Ditlef Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, S., I, D. H. Mueller, Epigraphische Denkmaeler, S., 57.

٣ Enc., Vol., I, P. 720, B. Littman, The Legend of Queen of Sheba in Tradition of Axum, in Bibliotheca Abessinca.

٤ Enc., Vol., I, P., 119, Conti Rossini, Note sugli Habshat, Roma, 1905.

فقد كان قليلاً لقد دخلت اليها دماء شعوب الشرق الأدنى من البحر المتوسط ومن طور سيناء ومن مضيق باب المندب . ويظهر أثر هذا الاختلاط واضحاً في إفريقية الشرقية وإفريقية الشمالية ، وما زال هذا التأثر واضحـاً حتى اليوم[١] . ولهذا فإن من الصعب تصور هجرة الساميين من افريقية الى جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق على وفق نظرية هؤلاء العلماء .

ومن القائلين إن المهد الأصلي للساميين هو أرض إرمينية (جون بيترس) ، وحجته في ذلك أن هذا المحل هو أنسب مكان يتفق مع رواية التوراة في الطوفان، وهو المحل الأصلي للأمم السامية والآرية[٢] . ثم إن الأنف الحثي يشبه كل الشبه الأنف العبراني ، وفي هذه التسمية دلالة على المكان ، وقد نسي أن العرب وهم من الساميين لم يرزقوا هذا الأنف[٣] .

وقد ذهب (أنكناد) (Ungnad) الى أن أصل الساميين من أوروبـة ، وقد تركوها وهاجـروا منها إلى آسية الصغرى ، ثم هاجـروا منها الى أرض (أمورو) (Amurru) ، وذهب قسم منهم في الألف الرابعة قبل الميلاد الى بابل وبقية أنحاء العراق[٤] .

وذهب (كلي) الى أن الوطن الأصلي للساميين هو أرض (أمورو) (Amurru) (الأموريين) وتشمل هذه الأرض ، في رأيه ، بلاد الشام ومنطقة الفرات[٥] . من هذه المنطقة هاجر الساميون ، وهو قد توصل الى نظريته هذه من الدراسات اللغوية[٦] ، ولكنها لا تستند في الواقع إلى أدلة قوية . والأموريون من الشعوب السامية القديمة التي سكنت في فلسطين والشام واقليم بابل[٧] .

---

١ L. H. D. Buxton, The People of Asia, London, 1925, P., 34.

٢ السـامية (ص ٤)
Journal of the American Oriental Society, XXXIX, 243, ff, Barton, P., 8.

٣ Barton, P., 8.

٤ A. Ungnad, Die Aeltesten Voelkerwanderungen Vorderasiens, Kulturfragen, I, (Breslau), 1923, 5, A. Grohmann, Arabien, S., 14.

٥ Barton, P., 8, A. T. Clay, Amurru, The Home of the Northern Semites, Philadelphia, 1909, The Empire of the Amorites, New Haven, 1919, Enc. of Rel. and Ethics, II, 380.

٦ Barton, P., 9.

٧ Hastings, P., 27, Enc. Bibl., P., 146, Meissner, Altar. Privatrecht, No. 42, Schrader, K. A. T., S., 178. ff.

وذهب آخرون إلى أن الوطن الأول الأصل للساميين هو أرض (قفقاسية) ، إذ كان البشر من ثلاثة أجناس أساسية،هي : الجنس القفقاسي (Caucassids) والجنس المنغولي (Mongoloids) (الآسيويين) ، والجنس الزنجي Negroids . وقد قصدوا بالجنس القفقاسي أصحاب البشرتين البيضاء والسمراء ، أي الآريين والساميين . فوطن هذين الجنسين الأول هو (قفقاسية) على هذا الرأي . منه انتقل الساميون الى أوطانهم الجديدة ، بهجرتهم الى الجنوب واستقرارهم فيما يقال له (الهلال الخصيب) ، ثم فيما وراءه الى السواحل الجنوبية لجزيرة العرب ، ومنه انتقل الآريون الى الجنوب الشرقي لقفقاسية والى الغرب والشمال ، أي الى آسية وأوروبة ثم الى أماكن أخرى فيما بعد[1] .

وهجرات على هذا النحو ، لا بد أن تكون لها أسباب ومسببات،اذ لا يعقل ترك انسان لوطنه من غير سبب . وقد بحث القائلون بهذا الرأي عن الأسباب التي أدت الى وقوع تلك الهجرات ، فوضعوا لهم جملة فرضيات .

ظهر الساميون على مسرح الوجود في الألف الثالثة قبل الميلاد ، واستقروا في هذه الأرضين التي اصطبغت بالصبغة السامية ، وهي الهلال الخصيب وشبه جزيرة سيناء وجزيرة العرب ، حيث تعد اليوم المواطن الرئيسية للساميين[2] .

وقد توسط بعض الباحثين بين الآراء المتباينة ، عن الوطن الأول للجنس السامي،فذهب الى أن الهلال الخصيب وأطراف جزيرة العرب هي الموطن الأول للساميين والميدان الذي وجدوا فيه منذ أقدم أيامهم،وقد كان هذا الميدان موضع صراع بين البداوة والحضارة ، فقد كان البدو يهاجمون الحضر سكان القرى والمدن ، والبدو هم من الساميين ، وكثير من الحضر كانوا من الساميين أيضاً، ومن هذا التنازع على الحياة تكوّن تأريخ الساميين في هذه المنطقة الواسعة من الهلال الخصيب التي تحدها من الشرق والشمال والغرب الجبال والتي تمتد فتشمل كل جزيرة العرب[3] .

---

١ Sonia Cole, Races of man, British Museum (Natural History). PP. 9.

٢ Simon Dubnow, Weltgeschichte des Juedischen Volkes, Bd., I, S., 3.

٣ Ancient Iraq, PP., 125.

الهجرات السامية :

تقول كل النظريات التي رأيناها عن أصل الوطن السامي ، بهجرات الساميين من ذلك الوطن الأم الى أوطان أخرى في أزمان مختلفة متباينة ، وذلك لأسباب عديدة منها : ضيق أرض الوطن من تحمل عدد كبير من الناس،وتزاحم الناس على الرزق ، مما دعاهم الى التحاسد والتباغض والتفتيش عن وطن جديد،وظهور تغيرات في طبيعة ذلك الاقليم ، الى عوامل أخرى .

وقد تصور القائلون ان جزيرة العرب هي مهد الجنس السامي ، بلاد العرب كخزان هائل يفيض في حقب متعاقبة ، تبلغ الحقبة منها زهاء ألف عام ، بما يزيد على طاقته من البشر الى الخارج،يقذف بهم موجات أطلقوا عليها (الموجات السامية)[1] .

وقد علل القائلون بنظرية أن جزيرة العرب هي مهد الجنس السامي ، سبب هذه الهجرات بعدم استطاعة جزيرة العرب قبول عدد كبير من السكان يزيد على طاقتها ، فلا يبقى أمامهم غير سلوك طريق الهجـرات الى الأماكن الخصبة في الشمال . وقد كانت الطرق الساحلية من أهم المسالك التي أوصلت المهاجرين الى أهدافهم .

وفي جملة أسباب ضيق جزيرة العرب عن استيعاب العدد الكبير من السكان تغير مستمر طرأ عليها ، أدى الى انحباس الأمطار عنها وشيوع الجفاف فيها مما أثر على قشرتها وعلى أحيائها ، فهلك من هلك وهاجر من هاجـر من جزيرة العرب ، وقد استمر هذا التغير آلافاً من السنين حتى حوّل بلاد العرب أرضين غلبت عليها الطبيعة الصحراوية ، وقلّت فيها الرطوبة ، وغلب على أكثر بقاعها الجفاف[2] .

وقد رأى بعض العلماء أن جزيرة العـرب كانت في عصر (البلايستوسين) (Pleistocene) خصبة جداً كثيرة المياه ، تتساقط عليها الأمطار بغزارة في جميع فصول السنة ، وذات غابات كبيرة وأشجار ضخمة، كالأشجار التي نجدها في الزمان

---

١ حتي (ص ١٣) .
Montgomery, Arabia and the Bible, P., 21.

٢ Montgomery, Arabia and the Bible, PP., 90, « The Problem of the Physical change in Arabia ».

الحاضر في الهند وإفريقية ، وأن جوها كان خيراً من جو أوروبة في العصور الجليدية التي كانت تغطي الثلوج معظم تلك القارة ، ثم أخذ الجو يتغير في العالم، فذابت الثلوج بالتدريج ، وتغير جو بلاد العرب بالطبع ، حدث هذا التغير في عصر الـ (نيوليتك Neolithic) أو في عصر الـ (كالكوليتك) (Chalcolithic) ، ولم يكن هذا التغير في مصلحة جزيرة العرب ، لأنه صار يقلل من الرطوبة ويزيد في الجفاف ، ويحول رطوبة التربة إلى يبوسة فيميت الزرع بالتدريج ، ويهيج سطح القشرة فيحولها رمالاً وتراباً ثم صحارى لا تصلح للانبات ولا لحياة الأحياء[1] .

فاضطر سكان الجزيرة الذين كانوا من الصيادين إلى أن يكيفوا أنفسهم بحسب الوضع الجديد ، فأخذ ناس منهم يهاجرون إلى مناطق أخرى ملائمة توائم حياتهم ومزاجهم ، وأخذ ناس آخرون يعتمدون على الزرع وتدجين الحيوانات، وعلى الاكتفاء بصيد ما يرونه من حيوانات تحملت الجو الجديد متنقلين من مكان إلى مكان حيث الكلأ والماء . وهكذا تعرضت حياة الأجسام الحية من نبات وحيوان لتغيرات تدريجية مستمرة ، فرضها عليها تغير الجو .

وقد أدى انحباس المطر وازدياد الجفاف ويبوسة الجو الى انخفاض الرطوبة من سطح الأرض ، وهبوط مستوى الماء بالتدريج عن قشرة الأرض،وظهور الأملاح في الآبار ، وجفاف بعض الآبار ، فأدى ذلك إلى ترك الناس هذه الأماكن ، إذ صعب عليهم استغلالها بالزراعة ، واصلاحها بحفر آبار لا تساعد مياهها الملحة على نمو النبات ، ومعيشة الحيوان . حدث ذلك حتى في العصور الإسلامية حيث نسمع شكاوى مريرة من هذه العوارض الطبيعية[2] .

---

١ BOASOR, Suppl., No. 7-9, P, 41, (1950), Discoveries, P. 82, A. Grohmann., Arabien, S. 5, B. Thomas, Anthropological Observations in South Arabia, Proceedings of the Royal Anthropological Institute.

٢ تجد امثلة كثيرة وبحثا قيما في هذا الموضوع كتبه (موريتس B. Moritz) في كتابه :
Arabien, Studien Zur Physikalischen und Historischen Geographie des Landes.

وقد تحدث (فلبي) عن هبوط مستوى مياه بعض الآبار التي زارها عام ١٩١٧ م في الخرج[١] ، كما تحدث غيره من السياح عن حوادث مشابهة حدثت في تهامة والحجاز وأماكن أخرى[٢] .

ويعزو علماء طبقات الأرض انخفاض مستوى سطح الماء في جزيرة العرب إلى عوامل أخرى، إضافة إلى الجفاف مثل هبوط درجات الضغط على قشرة الأرض. وقد رأى الخبير الأمريكي (تويجل) (Twitchell) ، أن الماء قد انخفض زهاء سبع وعشرين قدماً عن مستواه الذي كان عليه قبل ألفي عام[٣] . ومن العلماء من يرى أن مستوى سطح الماء في البحر الأحمر وفي الخليج العربي قد انخفض كذلك، فذهب بعض علماء دراسة التوراة إلى أن مستوى سطح الماء في خليج السويس قد انخفض (٢٥) قدماً عما كان عليه في (أيام الخروج – Exodus)[٤] . وذهبت جماعة منهم إلى أن هذا الهبوط لم يكن كبيراً ، وانما بلغ زهاء ست أقدام أو أقل من ذلك في خلال ثلاثة آلاف سنة[٥] . أما مستوى سطح الخليج العربي ، فقد هبط على رأي بعضهم زهاء عشر أقدام أو خمس أقدام خلال ألفي عام ، وان ماء البحر قد تراجع في هذه المدة ، ويستدلون على ذلك بوجود السباخ في الأحساء والقطيف ، وهي ، في رأيهم ، من بقايا تأثر البحر في الأرض وبما ذهب اليه بعضهم من أن الربع الخالي ، وقد عثر فيه على بقايا بحر واسع في السهل المنخفض الذي يقال له أبو بحر ، كان متصلاً بالبحر العربي[٦] . ومهما يكن من شيء ، فإن هبوط مستوى سطح الماء مهما كان مقداره قد أثر في سطح الأرض .

وقد وجد السياح محاراً من النوع الذي يكون في المياه العذبة ، وأدوات من الصوان ترجع إلى ما قبل التأريخ والعصور الحجرية ، وبقايا عظام ترجع إلى هذه العصور في مناطق صحراوية ، ويدل وجودها فيها على أنها كانت مأهولة، وأنها لم تهمل إلا لعوارض طبيعية قاهرة لم يكن من الممكن التغلب عليها ، حولت

---

١ Philby, The Heart of Arabia, P., 37, 38, BOASOR, Suppl., Nos, 7-9, P., 41.

٢ راجع كتاب « موريتس » المذكور Discoveries, P., 83.

٣ Twitchell, Saudi Arabia, P., 44, 51.

٤ BOASOR, Suppl., Stud., Nos, 7-9, P. 42.

٥ المصدر نفسه

٦ Philby, The Heart of Arabia, P., 31, Dougherty, The Sealand, P., 160.

تلك المناطق الخصبة في ألوف من السنين إلى مناطق لا تتوفر فيها شروط الحياة ، فهجرت[1] .

كما أننا نجد في الكتب العربية ذكر أشجار ضخمة كانت تنمو في مناطق لا تنبت شيئاً ما في الزمان الحاضر ، وذكر مناطق كانت تحمي ، يقال لها (الحمى) وقد جفّ معظمها ، وعاد أرضين قفرة جرداء، فهلاك هذه النباتات وجفاف هذه الأرضين ، لا يمكن أن يعزى إلى سوء الأوضاع السياسية وهجرة القبائل والمزارعين إلى أماكن أخرى لفساد الادارة في الأماكن البعيدة حسب ، بل لا بد أن يكون للطبيعة يد في هذا التحول ونصيب . إن هذا التغير الذي حدث في جو جزيرة العرب ، فساعد على ازدياد الجفاف وانحباس الأمطار ، قد أباد النباتات ، وقاوم نمو المزروعات ، وعفى على الأشجار الضخمة التي كانت تعيش من امتصاص جذورها العميقة للرطوبة من أعماق الأرض ، كما أثر في حياة الحيوان كالأسد الذي قلّ وجوده ، وقد كان كثير الوجود ، ويدل على كثرة وجوده هذه الأسماء الكثيرة التي وضعت له وحفظت في كتب اللغة[2] . وحمار الوحش وقد كان من الحيوانات التي يخرج الناس لصيدها في الحجاز وفي نجد ، والنعامة[3] . والرئم أو بقر الوحش ، والفهد ، والنسر[4] .

ومن العلماء الذين نسبوا هجرة الساميين من جزيرة العرب إلى خارجها ، إلى عامل الجفاف والتغير الذي وقع في جو جزيرة العرب ، العالم الايطالي (كيتاني) (L. Caetani) . لقد تصور (كيتاني) بلاد العرب في الدورة الجليدية جنة ، بقيت محافظة على بهجتها ونضارتها مدة طويلة وكانت سبباً في رسم تلك الصورة البديعة في مخيلة كتّاب التوراة عن (جنة عدن) . وجنة عدن المذكورة في العهد القديم هي هذه الجنة التي كانت في نظر (كيتاني) في جزيرة العرب ،

---

١ المراجع نفسها ، مجلة سومر ١٩٤٩ ، المجلد الخامس ، ١٢٧/٢ فما بعدها .

٢ المخصص (٥٩/٨ فما بعدها) وقد اشتهرت بعض الاماكن باسودها ، مثل (عثر) قال الهمداني : « والى حارة عثر تنسب الاسود التي يقال لها اسود عثر ، واسود عتود وهي قرية من بواديها وقد ذكرها ابن مقبل : »

جلوسا بها الشم اللجان كانهم اسود بثرج او اسود بعتودا

Moritz, S., 35. ff., 40, Noeldeke, In ZDMG., 49, 713. f.

٣ Moritz, S., 42, Wellhausen, Lieder der Hudhailiten, No., 175, 176, Euting. I, 230.

٤ صفة ص ٢٠٢

غير أن الطبيعة قست عليها ، فأبدلتها صحارى ورمالاً ، حتى اضطر أصحابها إلى الارتحال عنها إلى أماكن تتوافر فيها ضروريات الحياة على الأقل فكانت الهجرات إلى العراق وبلاد الشام ومصر والمواطن السامية الأخرى . وكانت هذه الهجرات كما يقول قوية وعنيفة بين سنة ٢٥٠٠ وسنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ، فدخل الهكسوس أرض مصر ، وهاجر العبرانيون إلى فلسطين ، ثم ولي ذلك عدد من الهجرات[١] .

ويرى (كيتاني) أن هذا التغير الذي طرأ على جو جزيرة العرب ، انما ظهر قبل ميلاد المسيح بنحو عشرة آلاف سنة ، غير أن أثره لم يبرز ولم يؤثر تأثيراً محسوساً ملموساً إلا قبل ميلاد المسيح بنحو خمسة آلاف سنة . وعندئذ صار سكان بلاد العرب ، وهم الساميون ، ينزحون عنها أمواجاً ، للبحث عن مواطن أخرى يتوفر فيها الخصب والخير ، وحياة أفضل من هذه الحياة التي أخذت تضيق منذ هذا الزمن[٢] .

وقد تصور (كيتاني) أودية جزيرة العرب ، مثل وادي الحمض ووادي السرحان ووادي الرمة ووادي الدواسر ، أنهاراً كانت ذات مياه غزيرة تنساب اليها من المرتفعات والجبال في الدهور الغابرة ، أثرت فيها التغيرات الطبيعية المذكورة ، فقللت من مياهها حتى جفت، فصارت أودية ، لا تجري فيها المياه إلا أحياناً ، إذ تسيل فيها السيول بعد هطول الأمطار[٣] .

وقد ذهب إلى هذا الرأي المستشرق الألماني (فرتز هومل) أيضاً ، فرأى أن الأنهر المذكورة في التوراة على أنها أنهر جنة (عدن) ، هي أنهر تقع في بلاد العرب ، وأن الأنهر المشار اليها ، هي وادي الدواسر ، ووادي الرمة ، ووادي السرحان ، ووادي حوران[٤] . وأما (كلاسر) ، فذهب إلى أن نهري

---

١ المقتطف ، جزء يوليو ١٩٤٤ ، ص ١٢٣ فما بعدها ، الجزء الثاني من المجلد الخامس بعد المئة ، مجلة سومر ، الجزء الثاني ، المجلد الخامس ١٩٤٩ ، ص١٢٣ فما بعدها ،

Caetani, Studi della Historia Orientale, Vol., I, P., 64, 185, 186, 188, 192. 277. Musil, Negd, P., 311, 305, Caetani, Studi, Vol. 2, PP. 53, 65.

٢ Montgomery, Arabia and the Bible, P., 95.

٣ Caetani, Studi, Vol., I, P., 64, 80, 243, Vol. 2, PP. 53. 65. Musil. Negd. P., 305, Caetani, Annali Dell'Islam, II, Part II, (1907), 831. ff.

٤ Montgomery, Arabia, PP., 9, F. Hommel, Opus Magnum Ethnologie und Geographie des Alten Orients, II, 508, 547, 1926.

(جيحون) و (فيشون) ، وهما من أنهر (جنة عدن) الأربعة في رواية التوراة[1] ، هما في جزيرة العرب[2] .

ويعتقد (كيتاني) أن الفيلة والحيوانات الضخمة التي يندر وجودها اليوم في بلاد العرب ، كانت موجودة فيها بكثرة ، ولا سيما في أرض (مدين) . وكان الصيادون يخرجون لاصطيادها لأكل لحومها[3] . وقد جـاء بأمثلة لتأييد رأيه من كتب (الكلاسيكيين)[4] .

وقد قسّم (كيتاني) جزيرة العرب إلى قسمين : غربي وشرقي . أما القسم الغربي، فهو الذي على ساحل البحر الأحمر الشرقي، وفيه سلاسل جبلية ومرتفعات . وأما القسم الشرقي ، فالأرضون التي تأخذ في الانحدار والميل . وهي عند السفوح الشرقية للجبال ، وتمتد نحو الخليج . وقد كان سكان المناطق الغربية — في رأيه — في مستوى راقٍ من المدنية ، وكان لهم سلطان كبير على المناطق الشرقية ، وعلى سكانها الذين كان يغلب عليهم الفقر . وقد كان فعل الجفاف أشد وأسرع في الأرضين الشرقية منه في الأقسام الغربية ، لذلك بدأت الهجرات من هذه المناطق قبل المناطق الغربية، وظهرت فيها البداوة بصورة أوضح من ظهورها في الأرضين التي على ساحل البحر الأحمر والمتصلة باليمن وبلاد الشام . ولما توسعت منطقة الجفاف وأخذت الرطوبة تقلّ في جو بلاد العرب الغربي ، ظهـرت أعراض الصحراوية في تلك الأرضين كذلك ، واضطر السكان إلى الهجرة منها إلى مناطق أخرى[5] .

وقد لاقت نظرية (كيتاني) هذه رواجاً بين عدد كبير من المستشرقين ، واعتدها (السير توماس أرنولد) من أهم النظريات التي اكتشفها المؤرخون الحديثون بالنسبة إلى التأريخ العربي[6] . غير أن المستشرق (الويس موسل) ، يرى أنها لا تستند إلى أسس تأريخية ، ولا إلى أدلة علمية ، وأن القائلـين بها قد بالغوا

---

١ التكوين ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٠ فما بعدها .

٢ Glaser, Skizze, S., 314, Montgomery, P., 94.

٣ Musil, Negd, P., 308.

٤ Strabo, Geography, XVI, 4, 18, Periplus, PP., 177, (Mueller Ed.), Diodorus. Bibliotheca Historica, III, 43. f.

٥ Musil, Negd, P., 311, Caetani, Studi., P., 210.

٦ Musil, Negd, P., 304, Arnold, The Caliphate, (1924), PP. 23.

فيها مبالغة كبيرة ، ويرى أنه ما دامت البحوث (الجيولوجية) التي قام بها العلماء في مراحلها الأولى ، وقد جرت في مناطق محدودة فلم تفحص أكثر مناطق جزيرة العرب فحصاً علمياً فنياً ، حتى الآن ، فلا يصح الاعتماد على فرضيات ، تبنى عليها آراء ثابتة . ولهذا فهو يرى أن الأدلة (الجيولوجية) التي استشهد بها (كيتاني) ضعيفة وغير كافية ، فهي لا تستحق مناقشة ، واكتفى بمناقشة الأدلة التأريخية[1] .

يرجع (موسل) سبب الهجرات ، وتحول الأرضين الخصبة صحارى ، إلى عاملين هما : ضعف الحكومات ، وتحول الطرق التجارية[2] . فضعف الحكومات ينشأ عنه تزعم سادات القبائل والرؤساء ، وانشقاقهم على الحكومات المركزية ، ونشوب الفتن والاضطرابات واشتعال نيران الحروب، وانصراف الحكومة والشعب عن الأعمال العمرانية ، وتلف المزارع والمدن، وتوقف الأعمال التجارية وحصول الكساد ، وانتشار الأمراض والمجاعة ، والهجرة إلى مواطن أخرى يأمن فيهـا الانسان على نفسه وأهله وماله . فخراب سدّ (مأرب) مثلاً لا يعود إلى فعل الجفاف الذي أثر على السدّ كما تصور ذلك (كيتاني)[3] ، بل يعود إلى عامل آخر لا صلة له بالجفاف ، هو ضعف الحكومة في اليمن ، وتزعم (الأقيال) و (الأذواء) فيها ، وتدخل الحكومات الأخرى في شؤون العربيـة الجنوبية كالحبشة والفرس ، مما أدى إلى اضطراب الأمن في اليمـن ، وظهور ثورات داخلية وحروب ، كالذي يظهر من الكتابات التي تعود إلى النصف الثاني من القرن السادس للميلاد[4] ، فألهى ذلك الحكومة عن القيام بإصلاح السد، فتصدعت جوانبه ، فحدث الانفجار ، فخسرت منطقة واسعة من أرض اليمن مورد عيشها الأول ، وهو الماء ، ويبست المزارع التي كانت ترتوي منه ، واضطرت القبائل وأهل القرى والمدن الواقعة فيها إلى الهجرة إلى مواطن جديـدة . وتصدع السد بسبب ضغط الماء على جوانبه، هو في حد ذاته دليل على فساد نظرية الجفاف[5] .

---

١ Musil Negd, P., 304.

٢ Musil, Negd, PP., 317.

٣ Musil, Negd, P., 309, Caetani, Studi., 267, 296.

٤ Corpus Inscriptionum Semiticarum, (1911), Part, 4, Vol., 2, Nos. 384, 540, 541.

٥ Musil, Negd, P., 310, Corpus Inscript. Semit, No. 540, II, 54-64.

ويرى (موسل) أن التقدم الذي حدث في البلاد العربية بعد القرن التاسع عشر دليل آخر على فساد نظرية (كيتاني) ، فقد ظهرت مدن حديثة، وعمرت قرى ، وشقت ترع ، وحفرت آبـــار ، وعاش الانسان والحيوان والنبات في مناطق من العراق وسورية ولبنان وفلسطين والأردن كانت تعـــد من الأرضين الصحراوية[1] . فليس الجفاف هو المانع من عمارة هذه المناطق ، والسبب في تكون هذه الصحارى ، بل السبب شيء آخر ، هو ضعف الحكومات وانصرافها عن العمارة وعن المحافظة على الثروة الطبيعية وضبط الأمن ، ووقوفها موقف المتفرج تجاه قطع الناس للأشجار واستئصالها لاستخراج الفحم منها ، أو لاستعمال خشبها في أغراض أخرى ، وقتال القبائل بعضها ببعض ، هذا وان من الممكن إعادة قسم من الأرضين الجرد إلى ما كانت عليه ، إذا ما تهيأت لها حكومة قوية رشيدة تنصرف إلى حفر الآبار ، واقامة السدود ، وغرس الجبال ، وانشاء الغابات ، والاستفادة من مياه العيون[3] .

ويرى (موسل) أيضاً أن ما ذكره (كيتاني) عن الأنهـــار في جزيرة العرب مسألة لا يمكن البت فيه الآن،لقلة الدراسات العلمية[2] ، كما ان ما ذكره عن انعدام أجناس من الحيوانات ، ليس مرده إلى الجفاف وعـــدم احتمال تلك الحيوانات الجو الجديد ، فهلكت ، أو هاجرت إلى مواطن جديدة ، بل مرده في نظره إلى اعتداء الانسان عليها ، وقتله اياها . ودليله على ذلك أن الحيوانات التي ورد ذكرها في كتب (الكلاسيكيين) لا تزال تعيش في المناطق التي عيّنها أولئك الكتّاب ، ولكنها بقلة . كذلك نجد الهمداني وغيره ينكـر وجود الأسد وحيوانات أخرى في مواضع قلّ فيها وجودها الآن ، وهذا ممـــا يشير إلى أن هذه الحيوانات لم تنقرض أو تقل بفعل تبدل الجو ، بل بفعل اعتـــداء البشر عليها ، وان اعتداء البشر على الحيوان شر من اعتداء الطبيعة عليه[4] .

ولا يوافق (موسل) على نظرية (كيتاني) في هجرة القبائـل العربية من الجنوب إلى الشمال ، أو من الشرق إلى الشمال . وقد رأى (كيتاني) كما سبق

---

١ Musil, Negd, P., 310.
٢ Musil, Negd, P., 318.
٣ Musil, Negd, P., 305, Caetani, Studi., P., 60, 87. ff.
٤ Musil, Negd, P., 309.

أن ذكرنا تقسيم جزيرة العرب إلى قسمين : قسم غربي وهو الممتد من فلسطين إلى اليمن ، وينتهي بالبحر العربي ، وتكون حدوده الشرقية (السراة) والغربية البحر الأحمر ومضيق باب المندب . وقسم شرقي ، وهو ما وقع شرقي (السراة) إلى الخليج والبحر العربي[1] .

وقد ظهر الجفاف في رأي (كيتاني) في القسم الشرقي قبل الغربي ، ولهذا صار سكانه يهاجرون منه بالتدريج إلى مواطن جديدة صالحة للاستيطان مثل العراق والشام ، كما صار سبباً لظهور الصحارى الشاسعة في هذا القسم بصورة لا نعهدها في القسم الغربي[2] .

ويرى (موسل) أن هذا تقسيم لا يستند إلى أسس طبيعيه وجغرافية ، ولا إلى آراء (الكلاسيكيين) ، أو علماء الجغرافية العرب ، أو غيرهم ، وانه مجرد رأي لا يمكن أن يكون حجة لاثبات مثل هذا الرأي[3] .

ولموسل رأي في الهجرات ، يرى أن ما قاله (كيتاني) وغيره عن الهجرات من جزيرة العرب ، من اليمن أو من نجد إلى الشمال ، قول لا يستند إلى دليل تأريخي قوي . فليست لدينا حتى الآن براهين كافية تثبت — على حد قول موسل — أن أصل (الهكسوس) أو (العبرانيين) مثلاً من جزيرة العرب[4] . كما أن ما ادعاه (كيتاني) عن استمرار الهجرات من الألف الثالث أو قبل ذلك قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد قول لا ينطبق مع المنطق . فلِمَ ظلت هذه الهجرات مستمرة إلى أن توقفت بعد القرن السابع للميلاد ؟ أزادت الرطوبة وتحسن الجو ؟ أم أن القبائل الكبيرة كانت قد تجزأت إلى قبائل صغيرة وعشائر وأفخاذ ، فأصبح في امكانها العيش بعض الشيء في محالّ صغيرة ، لا تحتاج إلى مراعي شاسعة ، ولا إلى مياه غزيرة ؟ فلم تدفعها الحاجة منذ هذا العهد إلى الهجرة في شكل موجات كبيرة . وهل كان الجفاف هو المانع من مهاجمة حدود الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية اللتين كانتا قد سدتا أبواب جزيرة العرب على أهلها ، فلم تسمحا للقبائل بتخطي هذه الحدود ؟ ويرى ان

---

١ Musil, Negd, P., 311.
٢ Caetani, P., 210, Musil, Negd, P., 311.
٣ Musil, Negd, P., 311.
٤ Musil, Negd, P., 311.

ما ادعاه (كيتاني) من أن الجفاف والجوع حملا قبائل اليمن على الهجرة إلى الهلال الخصيب حيث نزلت في أرضين كانت خالية مهجورة على أطراف الفرات والشام ، فألفت حكومتي (المناذرة) و (الغساسنة) ، قول لا يؤيده ما جاء في الكتب (الكلاسيكية) وفي المصادر (السريانية) من أن تلك الأرضين كانت عامرة ، آهلة بالسكان ، تمر بها الطرق التجارية العالمية . ويرى (موسل) أن الحكومتين (اللخمية) و (الغسانية) إنمـا ظهرتا بعد سقوط (تدمر) وقد أسس الدولتين (مشايخ) من أهل الهلال الخصيب،ولم يكونوا مهاجرين وردوا من الجنوب ، أو من العروض على نحو ما تزعمه بعض الروايات[1] .

ويأخذ (موسل) على (كيتاني) تصديقه الرواية العربية عن هجرة القبائل ونظريتها في الأنساب ، واعتدادها من جملة الأدلة التي تثبت نظرية الجفاف . ويرى أنها – مع التسليم بصحتها – تنطبق على الوضع الذي كان في القرن السابع للميلاد وفي الجاهلية القريبة من الإسلام ، وأنها رواية تستند إلى خـبر مسوغ لا يصح أن يكون سنداً في اثبات الهجرات لما قبل الميلاد[2] .

ويمكن تفسير انتساب القبائل – على حد قول موسل – بصورة أخـرى ، هو أن العرب الجنوبيين كانوا قد هيمنوا في الجاهلية وقبـل الإسلام بقرون على الطريق التجارية التي تصل الشام باليمن وعلى الطرق التجارية الأخرى ، وكانت لهم حاميات فيها لحماية القوافل من غارات الأعراب ، فلما ضعف أمر حكومات اليمن ، استقلت هذه الحاميات ، وكان كثيراً من أفرادها قد تزاوجوا مع من كان بجاورهم من القبائل ، واتصلوا بهم . ولما كان لليمن مقام عظيم وشرف بين القبائل ، انتسب هؤلاء إلى اليمن ، وصاروا يعـدون أنفسهم مهاجرين ، يتصل نسبهم بنسب اليمن . ومن هنـا نشأت ، في رأي (موسل) أسطورة الأنساب ! ثم جاء علماء الأنساب في (المدينـة) و (الكوفة) فسجلوها على أنها حقيقة واقعة ، ومنهم انتقلت إلى كتب التأريخ ، فتوسعت وتضخمت في الإسلام[3] .

ويدّعي (موسل) أنه لو كانت هنالك هجرات حقاً ، لرأينا أثرها في لغة

---

١ Musil, Negd, P., 312, Kuseir 'Amra, PP., 131.

٢ Caetani, PP., 268, Musil, Negd, P., 311.

٣ Musil, Negd, P., 312.

القبائل النازحة إلى الشمال وفي عقيدتها الدينية وفي ثقافتها وفي أساطيرها وفي قصصها الشعبي ، ولوجدنا في أقل الأحوال إشارة في الكتابات العربية الجنوبية التي تعود إلى ما قبل الإسلام . ولكننا لا نجد شيئاً من ذلك ، وهذا مما يفند رأي القائلين بالهجرات،وبأن أصل كثير من القبائل التي كانت تقيم في شمال جزيرة العرب ، ومن هؤلاء الغساسنة والمناذرة ، هم من اليمن[1] .

ويعترض (موسل) أيضاً على دعوى (كيتاني) وغيره من المستشرقين ممن زعموا أن الفتح الإسلامي هو آخر هجرة سامية قذفت بهـا جزيرة العرب إلى الخارج ، وأنها كانت بسبب الجفـاف والجوع ، ويرى أن ما جاء في هذه الدعوى لا يتفق مع الحقيقة ، وأن ما ذكره (كيتاني) عن عدد نفوس الحجاز مبالغ فيه ، وأن الجيوش التي اشتركت في فتح العراق والشام وفلسطين لم تكن حجازية أو نجدية حسب ، بل كانت فيها قبائل عراقية وشامية نصرانية،ساعدت أبناء جنسها العرب مع اختلافها مع المسلمين في الدين،وحاربت الروم والفرس ، ولذلك فليست الفتوحات الإسلامية هجرة من جزيرة العرب إلى الخارج على نحو ما تصوره (كيتاني) بدافع الفقر والجوع[2] .

والرأي عندي أن ما يسمى بموضوع تغير الجو في جزيرة العرب وبالهجرات السامية والاستشهاد بآثار السكنى عند حافات الأودية وفي أماكن مهجورة نائية ، لاتخاذ ذلك دليلاً على الوطن السامي وعلى هجرة الساميين ، هو موضوع لم ينضج بعد ، وهو لا يزال بعدُ يحتاج إلى دراسات علميـة وإلى نتائج أبحاث علماء (الجيولوجيا) والعلوم الأخرى ، ليقولوا كلمتهم في هذا الموضوع . فعلى بحث هؤلاء يتوقف الحكم في موضوع تطور الجو وتغير الإقليم . أما الحدس والتخمين، وأما الاعتماد على حوادث وعلى بحوث لغوية ومقابلات ومطابقات في أمور دينية وثقافية أخرى ، فإنها لا تكفي في نظري للبت في قضايا يجب أن يكون فيهـا الحكم والكلمة للعلوم لا للحدس والتصور والتخمين . هذا هو رأيي الآن في هذا الموضوع ، وفي كل الآراء الواردة عن مواطن الساميين .

فقد رأينا أن بعض تلك الآراء إنما قيلت لاعتقاد أصحابها بما ورد في التوراة،

---

١ Musil, Negd, P., 313.

٢ Musil, Negd, P., 313, Caetani, Studi., P., 307.

فجاءت بكل ما عندها من حجج وأدلة لإثبات رأيها هذا ، ورأينا أن في بعض الأدلة متناقضات واستشهادات ضعيفة ، ورأينا أن الاستشهاد باشتراك اللغات في الألفاظ لا يمكن أن يكون دليلاً قاطعاً على الأصل المشترك ، ثم إننا لا نملك سجلاً تاريخياً للنبات والحيوان ولظهور الألفاظ حتى نستشهد به في اثبات نظرية من النظريات ، وكل ما لدينا من هذا النوع إنما هو مجرد رأي وحدس. والرأي لا يكون رأياً علمياً إلا بحجة قاطعة وبدليل علمي دامغ وبحوث مختبريـة وآثار تثبت ذلك للعيان ، فمن حقي إذن أن ألتـزم التريث والانتظار وأستعجل العلماء المتخصصين في دراسة طبقات الأرض ، لنرى نتائج بحوثهم لنستنير بها في اعطاء أحكام في هذه الآراء .

أما بعض الأمثلة التي استُشهد بها لاثبات تغير جو جزيرة العـرب ، فهي أمثلة لا يمكن أن تكون دليلاً للتغير ، وإنما ترجع إلى عوامل أخرى مثل تغير طريق القوافل ، وتغير اتجاهات السفن البحرية ، وإلى الفتن والحروب وغارات القبائل المتوالية التي هي من شر الأوبئة التي فتكت بالمجتمـع العربي ، فسببت هرب الحضر من أماكن اقامتهم إلى أماكن أخرى ، لعدم وجود قوات نظامية وحكومة ترد اعتداءات الأعراب عليهم ، ثم الحـروب الأهلية التي وقعت في اليمن بين الحبش وأهل اليمن وأمثال ذلك مما وقع بين الفرس والعرب . أما في الإسلام،فقد كان للفتوحات دخل كبير في هجرة القبائل لنشر الإسلام وللاستمتاع بخيرات بقاع جديدة في العراق وفي بـلاد الشام وفي أمكنة أخرى لا يوجد لها مثيل في جزيرة العرب ، فتخربت لذلك بعض القرى والسدود القديمة التي كانت في الإسلام ، وهي اليوم خراب . أضف إلى ذلك الحروب والفتن التي وقعت في اليمن وفي باقي العربية الجنوبية والعروض في أيام الأمويـين والعباسيين وفي الأيام التي تلتهم ، فنشرت في تلك الديار الخـراب ، ثم اهمال الأمويين ومن جاء بعدهم من خلفاء وملوك وحكام شأن جزيرة العرب ، لفقرها وعدم وجود موارد غنية فيها ، وانتقال أصحابها أصحاب الجاه والنفوذ إلى البلاد الغنية ، فلم يبق من يدافع عنها ويتحدث بلسانها باعتبارها مهد العرب الأول ومهد الإسلام، فتقوى الخراب بذلك على العمار ، وأخذ يبتلع ما يجده أمامه من مستوطنات حتى وصلت إلى ما وصلت اليه اليوم .

والدليل على ذلك ، ورود أسماء مواضع عديـدة في اليمامة وفي الحجاز وفي

نجد واليمن وفي كل أنحاء جزيرة العرب الأخرى في الموارد العربية الإسلامية ، كانت مأهولة مزروعة في صدر الإسلام ، خربت وهجرت وصارت أثراً ، وقد ذهب عن أكثرها حتى الاسم . فلما كتب عنها الجغرافيون لم يجدوا من عمرانها شيئاً . بل نجد في كتب الجغرافيين أسماء مواضع نزلوا بها وأقاموا فيها، وكانت معمورة مسكونة . أما اليوم فلم يبق من أكثرها شيئاً ، فهل نرجع فعل هلاكها إلى الجفاف وتغير الجو وإلى اندثار الواحات والبحيرات والأنهار ؟ إن الجغرافيين المذكورين لم يشيروا إلى وجود واحات وبحيرات وأنهار حتى نقول بفعل الجو فيها ، بل هنالك عوامل أخرى عديدة اضطرت الناس إلى ترك مواطنهم تلك التي ذكرتها ، وفي مقدمتها الفتن والغزو وتغير الطريق وعدم قيام حكومة قوية تحمي الأمن .

وأما موضوع الاستشهاد بالهجرات ، فإنه موضوع غامض يحتاج إلى دراسة علمية عميقة ، فالذين يرون أن جزيرة العرب كانت مهد الجنس السامي،وضعوا نظريتهم هذه قياساً على روايات أهل الأخبار من أمر هجرة العرب إلى تلك الأرضين ، ومن الفتح الإسلامي الذي جرف قبائل عدنانية وقحطانية فساقها إلى بلاد العراق وبلاد الشام وإلى ما وراء هذه الأرضين ، ومن هجرة قبائل من جزيرة العرب إلى تلك البلاد حتى الزمن القريب،ومن أخبار عن هجرة الفينيقيين من البحرين إلى بلاد الشام . ولكننا نجد من ناحية أخرى ان التوراة تذكر أن الاسماعيليين هم سكان أرضين تقع في الأقسام الشمالية الغربية من جزيرة العرب وفي شرق فلسطين في البادية وفي طور سيناء ، والأخباريون يذكرون أن العدنانيين هم من سلالة اسماعيل أي أنهم اسماعيليون ، ويذكرون أنهم جاؤوا من الشمال فسكنوا الحجاز ، وأن جدهم رفع قواعد البيت الحرام. ونرى أن اليهود زحفوا من فلسطين نحو الحجاز ، وأن أقواماً من سكان العراق زحفوا نحو الجنوب فسكنوها في العروض . وأن قبائل عراقية كالقبائل العبرانية هاجرت من العراق إلى بلاد الشام ثم إلى مصر ثم عادت إلى بلاد الشام ، فمثل هذه الهجرات تلفت النظر وتجعل الباحث يبحث عن أمثلة أخرى من هذا القبيل ، لعله يجد غيرها أيضاً . وهي تجعله يشعر أن الهجرات لم تكن دائماً في اتجاه واحد ، بل كانت حركة دائمة تتجه مختلف الاتجاهات ، لعوامل سياسية واقتصادية وحربية ساحتها من شمال بلدية الشام إلى سواحل البحر العربي في الجنوب ، ومن سواحل البحر

الأحمر إلى سواحل الخليج العربي ، فهي ليست هجرات بالمعنى الذي نفهمه من الهجرات في لغة علماء الساميات ، ذات أزمان معينة لها أمد محدود كألف عام أو أكثر من ذلك أو أقل ، وبمقياس ضخم كبير ، بل هي حركة دائمة لقبائل أو لجماعات تتنقل من مكان إلى مكان طلباً للمعاش أو لأحوال سياسية وحربية ، فهي هجرة بهذا المعنى إذن ليس غير . فهذه الأرضون التي تشمل كل جزيرة العرب والعراق إلى حدود الجبال وكل البادية الواسعة حتى سواحل البحر الأبيض فطور سيناء إلى نهر النيل ، هي مواطن الساميين ، ومسارحهم التي كانوا وما زالوا يدرجون عليها . وقد درجت عليها أقوام أخرى أيضاً ليست بأقوام سامية ، قبل الميلاد وبعده ، بل حتى في زمن الإسلام ، ولكنها غلبت على أمرها ، وصهرت في بوتقة الساميين ، أمثال الفرس واليونان والرومان والصليبيين . فقد بقي من هؤلاء خلق اندمجوا بهم وتخلقوا بأخلاقهم وتكلموا بألسنتهم بمرّ السنين ، حتى صاروا مثلهم ومنهم ، وبذلك امتزجت دماء الساميين بدماء غريبة عنهم فدمهم من هنا ليس بدم صاف نقي ، وليس في الأجناس البشرية جنس يستطيع أن يفخر فخراً مطلقاً بكونه الجنس النقي الخالص الذي لم يختلط قط بأي دم غريب .

أضف إلى ما تقدم أن العلماء القائلين بتبدل الجو وبتغيره ، هم على خلاف بينهم في الأزمنة وفي الأسباب . فمنهم من بالغ ، ومنهم من أفرط حتى قال إن الجو في جزيرة العرب كان يختلف في أيام اليونان والرومان عنه في الأيام الحديثة[1] . ومنهم من قال إن الجو لم يتبدل تبدلاً محسوساً مؤثراً فيها منذ حوالي ألفي عام ، ومنهم من عزا أسباب انخفاض مستوى الماء الأرضي في جزيرة العرب إلى عوامل ليست لها صلة بتبدل الجو ، وعزا خراب القرى والمدن واندثار السدود الى عوامل أخرى لا علاقة لها بتبدل الجو[2] . ومع كل ذلك ، فإن هذه الدراسات لم تنضج بعد ، ودراسة أرض جزيرة العرب وجوّها لم تتم بصورة علمية مختبرية بعد ، وأكثر ما ذكرته هو ملاحظات مؤرخين أو باحثين علميين ، على نحو من الحدس والتخمين ، ولا يمكن بناء نظريات معقولة مقبولة على مثل هذه الآراء .

---

١ Discoveries, P., 82, E. Huntington, Palestine and its Transformation, Cambridge, 1911.

٢ Discoveries, P., 84.

إن هذه الملاحظات تدفعني إلى التريث في البت في وطن الجنس السامي، حتى تتهيأ دراسات أخرى علمية دقيقة عنه ، لأن الأخذ بالقياس، وبمجرد الملاحظات والمشاهدات ، لا يمكن أن يكون دليلاً علمياً مقنعاً في تثبيت الوطن الأول الذي ظهر فيه هذا النسل الذي نسميه بالنسل السامي . وان كنت أجد أن جزيرة العرب قد أمدّت الأقسام العليا منها ، وهي بلاد العراق والبادية وبلاد الشام بفيض من الناس ، بصورة دائمة مستمرة ، وذلك لأسباب عديدة عسكرية واقتصادية ، وأنها لم تأخذ من تلك الأرضين مثل هذا الفيض .

إن نظرية موطن الجنس السامي ، هي في نظري جزء من مسألة كبرى معقدة ، هي مسألة موطن الجنس البشري بكامله ، هل هو موطن واحد في الأصل ، أو جملة مواطن ، وإذا كان ذلك الموطن موطناً واحداً ، فأين كان؟ وكيف ظهرت هذه الأجناس البشرية بألوانها المتعددة وبسحنها المختلفة ؟ إن هذه بحوث ، على البشرية أن تضني نفسها في البحث عنها ! وكل بحوثنا الآن حدس وتخمين ، حتى يترقى العلم البشري إلى درجات فدرجات .

اللغة السامية الأم :

تدفعنا هذه النظريات التي قالها العلماء عن السامية وعن القرابة اللغوية التي نراها في مجموعة اللغات السامية ، وعن اشتراكها في كثير من أسس النحو والصرف، إلى التفكير في أن جميع هذه اللغات تفرعت من لغة واحدة هي أم اللغات السامية، (Ursemitisch) كما يعبر عنها بالألمانية . ويدفعنا ذلك إلى البحث عن أقدم النصوص المدونة في اللغات السامية ، وعن الخصائص الأساسية المشتركة بين كل هذه اللغات ، للوقوف على اللغة السامية الأولى التي انقرضت ، وبقيت آثارها في هذه الجذور التي غذت اللغات السامية القديمة منها والحديثة بالخصائص السامية، وعن أقرب الفروع التي انفصلت من الأم .

لقد بحث المستشرقون في هذا الموضوع ولا يزالون يبحثون فيه ، فمنهم من وجد أن العبرانية أقدم اللغات السامية ، وأقربها عهداً بالأم ، ومنهم من رأى أن العربية على حداثة عهدها جديرة بالدراسة والعناية ، لأنها تحمل جرثومة السامية ، ومنهم من رأى القدم للآشورية أو البابلية ، وهناك من رأى غير

ذلك[1] . وبالجملة ، لم يدّع أحد من العلماء أنه توصل إلى تشخيص لغة (سام) ، وتمكن من معرفة اللغة التي تحدث بها مع أبيه (نوح) أو مع أبنائه الذين نسلوا هذه السلالات السامية .

وكان من جملة العوامل التي ألهبت نار الحماسة في نفوس علماء التوراة والساميات للبحث عن اللغة السامية الأولى أو أقرب لغة سامية اليها، القصص الوارد في التوراة عن سام وعن لغات البشر ، وبابل ولغاتها والطوفان وما شاكل ذلك، ثم وجد المستشرقون المعاصرون أن البحث في هذا الموضوع ضرب من العبث ، لأن هذه اللغات السامية الباقية حتى الآن هي محصول سلسلة من التطورات والتقلبات لا تحصى ، مرت بها حتى وصلت إلى مرحلتها الحاضرة ، كما أنها حاصل لغات ولهجات منقرضة . واللغة السامية القديمة لم تكن إلا لغة محكية زالت من الوجود ، دون أن تترك أثراً . ومن الجائز أن يهتدي العلماء في المستقبل إلى لغات أخرى ، كانت عقداً بين اللغات السامية القديمة التي لا نعرف من أمرها شيئاً وبين اللغات السامية المعروفة . والأفضل أن ننصرف الآن إلى دراسة اللغات السامية والموازنة بينها ، لنستخلص المشتركات والأصول . ومتى تتكون هذه الثروة اللغوية ، يسهل البحث في اللغة السامية الأم ، كما تستحسن الموازنة بين هذه اللغات واللغات التي ظهرت في القارة الإفريقية ، مثل المصرية القديمة والبربرية والهررية وبقية اللهجات الحبشية ، لتكوين فكرة علمية عن الصلات التي تربط بين الحاميين والساميين وكانت من جملة العوامل التي دفعت بعض العلماء إلى القول بأن أصل الجنسين واحد ، كان يقيم في قارة إفريقية .

وبالجملة إن هناك جماعة من المستشرقين ترى ان اللغة العربية على حداثة عهدها بالنسبة إلى اللغات السامية الأخرى ، هي أنسب اللغات السامية الباقية للدراسة وأكثرها ملاءمة للبحث ، لأنها لغة لم تختلط كثيراً باللغات الأخرى ، ولم تتصل باللغات الأعجمية قبل الإسلام ، فبقيت في مواطنها المعزولة صافية ، أو أصفى من غيرها في أقل الأحوال ، ثم انها حافظت على خواص السامية القديمة مثل المحافظة على الإعراب على حين فقدت هذه الخاصة المهمة أكثر تلك اللغات ،

---

١ Carl Brocklemann, Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen Berlin, 1908
Zimmern, Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen, 1898.

ولهذه الأسباب وغيرها رأوا أن دراستها تفيد كثيراً في الوقوف على خصائص الساميّة القديمة ومزاياها[1] .

وقد شغل علماء العرب أنفسهم بموضوع اللغة الساميـــة أو لغة سام بن نوح بتعبير أصح ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، ذهبوا إلى البحث في لغة آدم أبي البشر وفي لغة أهل الجنة . وقد سبق لليهود والنصارى أن بحثوا في هذا الموضوع أيضاً ، في موضوع لغة آدم أي لغة البشر الأولى ، التي تفرعت منها كل لغات البشر حتى اليوم . وقد ذهب بعض علماء العربية إلى أن العربية هي اللسان الأول، هي لسان آدم ، إلا أنها حرفت ومسخت بتطاول الزمن عليها ، فظهرت منها السريانية ، ثم سائر اللغات . قالوا : « كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربياً ، إلى أن بعد العهد وطال ، فحرّف وصار سريانياً . وهو يشاكل اللسان العربي إلا أنه محرف »[2] . وقد أدركوا ما أدركـــه غيرهم من وجود قرابة وصلة بين العربية وبين السريانية ، فقال المسعودي : « وإنما تختلف لغات هذه الشعوب (أي شعوب جزيرة العرب) من السريانيين اختلافاً يسيراً »[3] .

وقد أخذ علماء العربية نظريتهم هذه من أهل الكتاب . ولما كانت السريانية هي لغة الثقافة والمثقفين، ولغة يهود العراق وأكثر أهل الكتاب في جزيرة العرب في ذلك العهد ، فلا يستغرب إذن قول من قال إن السريانية هي أصل اللغات وانها لسان آدم ولسان سام بن نوح .

العقلية السامية :

وتحدث المشتغلون بالتأريخ الثقافي و (علم الأجناس) عن عقلية خاصة بالشعوب الساميّة ، دعوها (العقلية الساميّة) ، كما تحدثوا عن عقلية (آريـــة) وعن عقليات أخرى ، وحاولوا وضع حدود لأوصاف العقلية الساميّة ، ورسم صورة خاصة بها تميزها عن صور العقليات البشرية الأخرى .

---

١ Nicholson, A Literary History of the Arabs, P., XVI.

٢ المزهـــر (١/٢٠) .

٣ التنبيه (ص ٦٨) .

وقد شاعت هذه النظرية نظرية خصائص العقلية السامية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ووجدت لها رواجاً كبيراً ، لظهور بعض الآراء والمذاهب التي مجدت العقلية الأوروبية ، وسبّحت بحمدها ، وقالت بتفوق العقل الغربي الخلاق المبدع على العقل الشرقي الساذج البسيط ! ورمز العقل الشرقي هو العقل السامي ، فهو لذلك عقل ساذج بسيط . ومن أشهر مروّجي هذه النظرية الفيلسوف الفرنسي (رينان) (Ernest Renan) (١٨٢٣ — ١٨٩٢م) ، و (كراف كوبينو) (Graf Arthur Gobineau) (١٨١٦ — ١٨٨٢ م) ، وهو من القائلين بتمايز العنصريات البشرية وبتفوق بعضها على بعض وبسيادة العقلية الآرية على سائر العقليات[١] ، و (هوستن ستيوارت شامبرلن Housten Stewart Chamberlain) (١٨٥٥ — ١٩٢٧ م) صاحب كتاب (أسس القرن التاسع عشر)[٢] .

ومن هذه الموارد أخذت (النازية) نظريتها في تفوق العرق الآري على سائر أعراق البشر ، وتفوق الجنس (الجرماني) خاصة من العرق الآري على سائر الأجناس والأعراق البشرية . ومن هنا وضع (هتلر) (قوانين نورنبرك) لحماية الدم الآري من الاختلاط بالدماء الأخرى ، ولصيانته ولبقائه دماً نقياً صافياً . ولترسيخ هذه النظرية في نفوس الناس ولترويجها بين الألمان والأوروبيين ، شجع البحث في موضوع (الأجناس البشرية) ، وحشد عدداً كبيراً من الأساتذة لإجراء بحوث ودراسات فيه ، وأوحى إلى أساتذة التأريخ كتابة التأريخ بطريقة تظهر دائماً أن الحضارة البشرية هي حاصل عمل الشعوب الآرية وحدها ، ونتاج من نتاجها ، بتلك الشعوب بدأت وبها تستمر . وقرر أن ما يقال عن حضارات الشرق الأدنى القديمة هو لغو وهراء ، ولهذا أوجب كتابة تأريخ هذه الشعوب على نحو جديد ، وعلى أساس هذه الفلسفة .

وبحوث مثل هذه تقوم في ظروف كهذه أو في ظروف مشابهة لها ، لا يمكن أن تكون الا دراسات فجة مغرضة ، مبعثها عاطفة وقصد مبيت ، لذلك لا يمكن الاطمئنان اليها ولا الاعتماد عليها . والبحث في خصائص جنس من

---

١ Essai sur L'Inégalité des Races Humaines.

٢ Housten Stewart Chamberlain, Die Grundlagen des neunzehnten Jahrhunderts, in 2 Vols.

الأجناس وفي مميزاته وسماته الظاهرة والباطنة ، يقتضي تقصي ملامح الجنس في الحاضر والماضي ، وذلك بدراسة ملامح الباقين وبفحص أجسامهم وخصائصهم بطرق علمية حديثة ، وبدراسة عظام الماضين وما تخلف من أجسامهم في باطن الأرض بالأساليب العلمية الحديثة أيضاً ، ليكون بحثنا شاملاً للماضي والحاضر ، ومثل هذه البحوث لم تجرِ حتى الآن ، لا على العرب ، ولا على غير العرب من هذه الشعوب التي نسميها (الشعوب السامية) .

ثم إن البحوث العلمية على قلتها وضآلتها تدل على وجود فروق بارزة بين الساميين في الملامح الجسمية ، في مثل شكل الجمجمة والأنف . ووجود مثل هذه الفروق ، لا يمكن أن يكون علاقة على وجود (جنس) بالمعنى العلمي المفهوم من (الجنس) يضم شمل الساميين . وعلى وجود عقلية خاصة بالساميين ذات حدود ورسوم تختلف عن عقليات الأجناس البشرية الأخرى .

والصفة العامة التي يراها علماء الساميات في الساميين ، أن الساميين يحبون الحركة والتنقل والهجرة من مكان الى مكان على طريقة الأعراب ، وأنهم ميالون الى الغزو والأخذ بالثأر ، وعاطفيون تتحكم العواطف في حياتهم ، ويغضبون لتافه الأمور ويرضون بسرعة ، يحبون فيسرفون في حبّهم ، ويظهرون الوجد فيه ، ويبغضون فيبالغون في بغضهم حتى ليصلوا الى حد القساوة والعنف لأسباب تافهة لا تستوجب كراهية ولا بغضاً ، فرديون في طباعهم ، تتغلب عليهم الفردية ، لذلك تراهم في الأصل قبائل ، اذا اتحدت وكوّنت حكومة قوية كبيرة ، لا تلبث أن تتعرض للانفصال والتفتت ، الحياة عندهم على وتيرة واحدة . موسيقاهم وشعورهم العام بما في ذلك الشعر والغناء وكل وسائل التعبير عنه ، حزن ونغم معدود مكرر[1] . قضاؤهم قضاء قبلي ، يقوم على القصاص بالمثل ، على أساس السن بالسن والعين بالعين والقتل بالقتل ، ونظام الحكم عندهم نظام ، أسسه الفكرة القبلية ، وديانتهم متشابهة ، تتجلى عندهم الغريزة الدينية واتقاد المخيلة وقوة الشعور الفردي والقسوة[2] . وتتغلب عليهم السطحية في التفكير ، فلا يميلون الى التعمق في درس الأشياء للوصول الى كنهها وجوهرها ، كما فعل اليونان .

---

١ Hastings, Extra Volume, P., 85.

٢ Hastings, A Dictionary of the Bible dealing with its Language Literature and Contents, Including the Biblical Theology, Extra Volume, 1904, P., 90.

وليست لهم قابلية في فهم الأمور المعقدة، ولهذا صارت أحكامهم عامة شاملة ساذجة لا تعقيد فيها ، لأن تفكيرهم تفكير ساذج غير معقد . وتفكيرهم هذا هو الذي جعلهم يبشرون بالتوحيد على حين كانت الأديان الآرية — على حد قولهم — أديانا معقدة تعتقد بوجود أكثر من إلـه[1] !!

ويرى هؤلاء العلماء أن البدوي هو خير ممثل للعقلية السامية، فقد عاش الساميون بدواً أمداً طويلاً ، ومرّوا في حياتهم بحياة البداوة ولهذا صارت عقليتهم عقلية بداوة ، تجمع بينهم صفات مشتركة نتجت من اشتراكهم في تلك الحياة[2] .

وقد وضع المتعصبون للنظرية العنصرية كتباً في موضوعات متعددة ، تعالج الجسم والروح عند الساميين والآريين ، وعنوا عناية خاصة بدراسة الحياة الروحية ومظاهرها عند الجنسين ، فبحثوا في الناحية القانونية والتشريعات المختلفة عند الساميين والآريين ، وقارنوا بين التشريع عند الجماعتين[3] . كذلك عالجوا مختلف النواحي الأخرى من الحياة ، حتى إن بعضهم ألّف كتاباً في موضوع حرمة أكل لحم الخنزير عند الساميين . مع انه من اللحوم الشهية عند الآريين ، وعدّ ذلك من مميزات الجنس[4] .

وهناك جماعة من العلماء ، ردّت على هذه النظرية التي تحدد العقليات ، وترسم لها حدوداً وتضع لها معالم ، رأت أن ما يذهب إليه أصحابها من وجود عقليات صافية خالصة للأجناس البشرية المذكورة ، يستوجب وجود أجناس بشرية صافية خالصة ذات دماء نقية ، لم تمتزج بها دماء غريبة ، ويقتضي ذلك افتراضنا اعتزال الأجناس بعضها عن بعض عزلة تامة، وهو افتراض محال ، لأن البشرية لم تعرف العزلة منذ القدم ، ولم تبن حولها أسواراً مرتفعة لتحول بينها وبين الاختلاط ببقية الأجناس ، والشواهد التأريخية والبحوث العلمية المختبرية تشير الى العكس، تشير الى الاختلاط والامتزاج ، كما ذكرنا آنفاً ، فما يقال عن اختلاف العقليات ، هو حديث أوحته العواطف والنزوات . أما ما نشاهده من اختلاف في أساليب

---

١ Ancient Iraq, by Georges Roux, London, 1964, P., 126, A. Guillaume, Prophecy and Divination among the Hebrews and other Semites, London, 1938.

٢ Hastings, P., 85, ff. (Extra Volume).

٣ Gerd. Ruehle, Rasse und Sozialismus im Recht, Berlin, 1935.

٤ R. Walter Darré, Das Schwein als Kriterium fuer Nordische Voelker und Semiten, Muenchen, 1933.

الفكر وفي فهم الأمور،فليس مرجعه ومردّه الى الدم ، بل الى البيئات الطبيعة والاجتماعية والثقافية ، فهي التي أثرّت وكونت هذه الفروق . وعلى الباحث دراسة كل ما يؤثر على الانسان من محيط ومن مؤثرات طبيعية مثل الضغوط الجوية والحرارة والبرودة والرطوبة ، ومن تركيب الأجسام وأشكالها . وألوان الشعر والبشرة والعين وبنية الجسم بصورة عامة ، ومن أنواع الأغذية التي يتناولها والمحيطات الثقافية التي يعيش فيها الى غير ذلك من مؤثرات يدرسها علماء الأجناس اليوم ، وذلك لاصدار أحكام معقولة عن أجناس البشر .